

بداية الكون

دراسة تأصيلية للنصوص القرآنية والنبوية

بحث من إعداد
د. محمود بن عبد الرازق

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية الشريعة وأصول الدين - جامعة الملك خالد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستعديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد ..

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، من المعلوم أن الحديث عن بداية الكون وعلاقته بوجود الإنسان استحوذ على قدر كبير من فكر الإنسانية على اختلاف مراحلها وتنوع أفرادها، وطالما دارت الأفكار حول ما ينطوي عليه الكون من أسرار تتعلق بالإنسان كمخلوق متميز عمن حوله من الكائنات، وكذلك تباينت العلل واختلفت الأسباب في كونه الوحيد المستفيد من هذه المخلوقات.

لقد شغلت هذه القضية العلماء في عصرنا، وإن كان العلم المادي لم يقدم لهم سوى قشور لا تكفي لإشباع العقل والفطرة، فمن أحدث النظريات في نشأة الكون، هي النظرية التي تُعرف بنظرية بـ Big Bang بانغ أو نظرية الانفجار العظيم، وهي النظرية التي تقدّم بها جورج لاميتّر سنة ١٩٢٠م، والتي تنصّ على أنّ كل المادة والإشعاعات في الكون جاءت نتيجة انفجار هائل تشكّل الكون بعده بصورته الفسيحة، وما زالت تلك العملية في حالة استمرار، وحسب هذه النظرية فإنّ الانفجار حدث قبل حوالي عشرة آلاف مليون سنة تزيد إلى عشرين ألف مليون، تقول النظرية: لسبب ما انفجرت تلك المادة، قاذفة المواد المتفجرة نحو الخارج كما يحدث عند انفجار القنبلة، وكان ذلك الانفجار هو أصل الخلق بالنسبة للكون^(١).

وهناك اكتشاف آخر حول اتساع الكون لفت الأنظار وأيد هذه النظرية يسمى بقانون هوبل، ذكر فيه أن اتساع الكون عملية مستمرة وأنّ هذا التوسّع موحد الخواص، أي أنّ خصائصه متساوية في كل الاتجاهات، هذا ما عليه الناس الآن وما تتناقله وسائل الإعلام ضمن برامجها، وهذه النظرية قد يؤيدها هذا البحث من جانب لكنها ليست البداية كما يعتقد أصحابها^(٢).

فقد ظهرت نظرية جديدة غيرت نظرية الانفجار العظيم، ففي سنة ١٩٩٨م ظهرت نظرية الحقل المتدرج لبول شتين هارت، ونيل تورك، هذه النظرية تقول أن الانفجار العظيم ليس هو بداية الوقت بل هو حلقة من سلسلة لا نهاية لها من الدورات مرّ خلالها الكون بالعديد من الفترات التي تعرّض فيها للمسخونة ثم التبريد ثم الانقباض ثم العودة من جديد إلى التمدّد، وأن قانون هوبل الذي ذكر فيه أن اتساع الكون عملية مستمرة وأنّ

(١) <http://www.darislam.com/home/thaqafa/data/asl.htm>

(٢) <http://www.geocities.com/bhonist/5.html>



هذا التوسع موحد الخواص أي أن خصائصه متساوية في كل الاتجاهات غير صحيح، فقد اكتشفوا أن النجوم البعيدة المنفجرة تفيد باستمرار توسع الكون على نحو متسارع حيث يتمدد بسرعات أكبر مما كان متصوراً في السابق^(١).

وأيّاً كان اختلافهم فالمعلومات التي يكتشفونها مهما بلغت لا تكفي لتقديم الحل المقنع في التعرف على بداية الكون وتفسير العلة الغائية من وجوده، لكن ما يهمنا من اكتشافاتهم أنهم توصلوا إلى حقيقة علمية نبدأ بها مقدمة البحث.

يذكر العالم الفيزيائي النووي أميد شمشك في كتابه «الانفجار الكبير» أن الكون الذي يحتوي على مائة مليار مجرة، وكل منها تحتوي على مائة مليار نجم، هذا الكون هو كون هائل جداً، ويبدو أكثر من اللازم إذا خطر ببال البعض أن الغرض هو بقاء الإنسان على الأرض، ومن ثم سوف يرد هنا سؤال: ألم تكن المجموعة الشمسية كافية للإنسان؟ أو لنقل مجرة واحدة على الأكثر كمجرتنا درب اللبانة؟ يقول: الجواب هنا: كلا وألف كلا، وذلك لأن الفضاء والزمان مفهومان يشكّلان توازناً متكاملًا في الكون، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فتقليص أحدهما يؤدي إلى تقليص الآخر وبنفس النسبة، فلو كان الكون عبارة عن مجرة درب اللبانة فقط لتقلّص بقاء الكون إلى شهرين فقط، وفي هذه الفترة القصيرة من الزمن، لا يمكن وجود الإنسان وبقية الكائنات على الأرض بهذه الحال، فالكون ومن ضمنه مجموعتنا الشمسية وجد بعناية خاصة لتهيئة الكرة الأرضية وجعلها صالحة لظهور مختلف أنواع الأحياء، وأخيراً لكي تكون صالحة لسكن الضيف العزيز المدعو بالإنسان.

ويمكن القول من خلال هذا البحث ومن خلال ما أشار إليه هذا

العالم الفيزيائي: إن الكون عند النشأة والتكوين أعدَّ إعداداً خاصاً وبعناية فائقة من أجل الإنسان ومن أجل استخلافه في أرض الله، أو بتعبير آخر يمكن القول: إن الكون مفصّل تفصيلاً خاصاً للإنسانية، بحيث تبقى معالمه الكونية فترة زمنية موقوتة ولعلة غائية محدودة ثم يتغيّر بعدها في انقلاب كونيّ شامل إلى وضع جديد وغاية جديدة.

ومن هنا جاء هذا البحث الذي نتناول فيه الحديث عن بداية الكون من خلال دراسة تأصيلية للنصوص القرآنية والنبوية، وقد قسمت البحث إلى عدة محاور جاء ترتيبها على النحو التالي:

□ المحور الأول: وقد اشتمل على ما يلي:

- مقدمات لا بد منها للتعرف على بداية الكون.
- ما هو الوصف الذي يتميز به الإنسان عن غيره؟

□ المحور الثاني: وقد اشتمل على ما يلي:

- ما المقصود بخلافة الإنسان للأرض؟
- لماذا استخلف الله الإنسان في الأرض؟
- لماذا عرضت الأمانة وماذا حدث لمن رفضها؟

□ المحور الثالث: وقد اشتمل على ما يلي:

- كيف كانت بداية الكون في مرحلته الأولى؟
- أيهما خلق أولاً: السماء أم الأرض؟
- الكون في مرحلته الثانية أعدّ من أجل الإنسان.

□ المحور الرابع: وقد اشتمل على ما يلي:

- الإنسان بين عون الملائكة وكيد الشيطان.
- هل الملائكة في ردّها على ربها كانت مستفسرة أم مستنكرة؟



- لماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

- ابتلاء الإنسان بالشیطان.

- العلة في وجود قرنين يهتفان بلمتين.

□ الخاتمة:

وفيها ملخص البحث ونتائجه.

أسأل الله ﷻ أن يغفر لي ذنبي وتقصيري وألاً يكلني إلى حولي
وتدبيره فإنه سبحانه وتعالى وليُّ الفضل والنعمة وله علينا بالغ الكرم
والمنة.

الباحث



المحور الأول:

مقدمات لا بد منها
للتعرف على بداية الكون

لما كانت الغاية من خلق الكون مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعلة من وجود الإنسان، فإن التعرف على بداية الكون يتطلب أموراً هامة كمقدمات لا بد منها:

أولاً: أن مصدر المعرفة في هذا الموضوع يكون بالرجوع إلى الخالق لأن العقل البشري قاصر عاجز، وعلوم الإنسان مهما بلغت محدودة، فلن يتمكن بمفرده من معرفة الأبعاد المتعلقة بالبداية والنهاية.

ونحن نعلم عقلاً أن صانع الشيء هو أولى من يبين خصائصه، ويشرح الإمكانات التي تميزه، هذا فضلاً عن علمه التام بتكوين صنعته وعلة تصنيع الشيء وغايته، فإذا كانت هذه حقيقة يسلم بها العقلاء فإن من العقل والحكمة أن نرجع في البحث عن بداية الكون وعلاقته بالإنسان إلى صانع العالم وخالقه، فهو سبحانه وتعالى الوحيد الذي يمكن أن يفسر لنا السبب في وجود الإنسان على هذا النحو المتميز بين المخلوقات.

ومعلوم أن الكلام المباشر مع الخالق ممتنع لأن الوحي انقطع بموت الأنبياء، ومن ثم لم يبقَ لدينا مصدر للمعرفة إلا ما نزل من السماء لكي نتعرف على بداية الكون والإنسان، ولا يوجد الآن مصدر سماوي موثوق فيه إلا القرآن، لأنه لا يمكن الاعتماد على التوراة والإنجيل في التعرف على



كلام الله على اعتبار أن أضعف الأحاديث إسناداً في الإسلام أقوى في ثبوتها من التوراة والأنجيل التي بأيدي النصارى اليوم.

فمن المعلوم أن التوراة التي نزلت على موسى ﷺ كتبت في ألواح نزلت من السماء، وأن الله كتبها بيده، وهذه ميزة فضل الله بها التوراة على غيرها من الكتب السماوية، وقد دلّ على ذلك كثير من النصوص القرآنية والنبوية^(١)، وكذلك في التوراة اليهودية نفسها^(٢)، والسؤال: أين هذه الألواح التي نزلت من السماء وتسلمها موسى ﷺ عند جبل الطور بسيناء؟

ما يؤكدّه علماء مقارنة الأديان أن التوراة الموجودة الآن باعتراف اليهود ليست هي ألواح موسى ﷺ وليست نقلاً موثقاً عنها وإنما كتبت بعد موته بقرون طويلة وعلى مراحل متعددة، والأدلة قائمة على أن التوراة التي كتبها أحبار بني إسرائيل عبر تاريخهم الطويل تعرضت للتغيير والتبديل، فكيف نعتبرها مصدراً موثقاً في الرجوع إلى الخطاب الإلهي ومعاني الحكمة التي بيّنها الحق لبدء الخلق؟

أما الأنجيل الموجودة اليوم إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا، فهي أيضاً حكاية تاريخية عن عيسى ﷺ، منقطعة السند انقطاعاً حاداً باعتراف النصارى^(٣)، أما نسخة الإنجيل الأصلية التي نزلت على عيسى ﷺ، أو سُمعت منه سماعاً مباشراً، وأوصلت إلى كتاب الإنجيل كسند متصل، بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة فهذه لا وجود لها على الإطلاق.

(١) انظر سورة الأعراف: ١٤٥، ١٥٤، وما أخرجه مسلم في كتاب القدر من حديث أبي هريرة ؓ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ عن احتجاج آدم لموسى ﷺ: «أَنْتَ مُوسَى، اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ».

(٢) انظر ما جاء في التوراة في النص على أنها كتبت في ألواح بيد الله تعالى: سفر الخروج (٢٤/١٢، ٣١/١٨، ٣٢/١٥، ٣٢/١٦، ٣٢/١٩، ٣٤/١، ٣٤/٢، ٣٤/٤، ٣٤/٢٩).

(٣) انظر على سبيل المثال انجيل لوقا/ ١: ٤، عن السبب في كتابته لهذا الإنجيل .

أما القرآن الكريم فهو آخر الكتب السماوية الموثوق فيها والتي ما زالت بوضعها الأول، يقول المستشرق الفرنسي موريس بوكاي: (صحة النص القرآني المنزل على محمد لا تقبل الجدل وتعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد، وسبب ذلك أن القرآن قد دوّن في عصر النبي، ولم يتعرض النص القرآني لأي تحريف من يوم أن أنزل على الرسول حتى يومنا هذا)^(١).

فالقرآن هو المصدر السماوي الوحيد الذي يقرأ بنفس أسلوب الوحي الأول حتى الآن، بإعجاز تراكيبه وبلاغة كلماته ودون أن يتعرض لأي تحريف أو تبديل، ومن ثم سنعتمد عليه اعتماداً كلياً في التعرف على بداية الكون وعلاقته بالإنسان، مع الاعتماد أيضاً على ما صحّ من السنة النبوية الصحيحة التي ثبتت عن النبي ﷺ وفق منهج المحدثين في الحكم عليها، ونحاول استنباط معاني الحكمة من خلال تفسير القرآن بالقرآن والسنة، وصحيح المأثور وقواعد اللغة والربط بين معاني الآيات والأحاديث.

ثانياً: التعرف على بداية الكون يتطلب معرفة الوصف الذي يتميز به الإنسان عن غيره، تلك الميزة التي جعلته مخلوقاً فريداً من نوعه، سخر الله من أجله هذه المخلوقات، فكيف ومتى ولماذا حدث هذا التميز؟ فهل العلوم العصرية والنظريات المادية تكفي للإجابة المنطقية عن هذه الأسئلة التي تتعلق ببداية الكون وظهور الإنسانية؟ قال الله ﷻ: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ [الكهف: ٥١]، ومن ثم سوف يتحتم علينا أن نلجأ إلى طريقة أخرى أعلى من عقولنا وأوسع من مداركنا لتعرف على الوصف الذي يتميز به الإنسان عن حولنا من الكائنات.

(١) بوكاي: موريس، ١٩٩٠م، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة حسن خالد، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت ص ١٥١، ونحيل القارئ إلى ما كتبه هذا المستشرق في كتابه: ١٩٧٧م، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة طبعة دار المعارف، لبنان.



ثالثاً: التعرف على بداية الكون يتطلب أن يكون منهج البحث معتمداً على النظرة الشمولية للنصوص القرآنية والنبوية، وأن يراعي الباحث في بحثه أن جهد العقل ينبغي أن يقوم على خدمة النقل، لا على أن يطوع النقل ليبدو متوافقاً مع نظرية اكتشفها عالم فلكي أو حفريه وجدوها لهيكل عظمي، فالنصوص القرآنية والنبوية ينبغي أن نتعامل معها على أنها صاحبة السيادة في قيادة الفكرة، وأنها هي التي توجه العقل نحو نور العلم وتهديه، وتأخذ بيده من ظلمة الجهل الذي هو غارق فيه، فالنقل عند السلف لا يكون أبداً مطية للعقل وإنما العكس هو الصحيح، فالعاقل يضع النصوص فوق رأسه على القمة، فرحاً سعيداً بما ناله من شرف الخدمة.

وإنما ذكرنا ذلك لأن بعض العلماء في عصرنا حاول أن يطوِّع النصوص بتعسف لخدمة بعض النظريات العلمية التي هي إلى الظن أقرب من الحقيقة، كالرأي الذي تفرد به الدكتور عبدالصبور شاهين في نشأة الإنسانية، والذي طرحه في كتابه «أبي آدم»، لما وجد الدكتور شاهين أن المؤرخين يحددون عمر البشرية من آدم إلى زماننا هذا بمدة لا تزيد عن سبعة آلاف سنة، ووجد أيضاً أن الاكتشافات العلمية يدعون من خلالها أن أقدم إنسان عمره مليون وتسعمائة ألف سنة، وهو المسمى عندهم بشر كينيا، اعتبر الدكتور شاهين تلك الاستنتاجات مسلّمات، وحاول أن يطوِّع نصوص القرآن لكي توافق الآراء العلمية حول ما اكتشفوه، فزعم أن البشر شيء والإنسان شيء آخر، فمفهوم البشر جعله دالاً على مخلوقات همجية بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد، وافترض أن وجود البشر كان منذ ملايين السنين، وأنها كانت بمثابة المراحل التحضيرية أو مشروع تحت الإنشاء لتسوية الإنسان في صورته المثلى.

أما مفهوم الإنسان فهو يعني عنده آدم وذريته، وهو المخلوق المكرّم الذي حمل الأمانة واستخلفه الله في الأرض، وصرّح أيضاً بأن آدم من نسل البشر وأنه مولود من أبوين ولم يخلق من طين كما هو مقرر في القرآن

أو كما هو راسخ في جميع الأذهان، فالذي خلق من طين تلك المخلوقات الهمجية السابقة على وجود الإنسان^(١)، يقول الدكتور عبدالصبور شاهين: (لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل، سواء في ذلك القدماء والمحدثون بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات، وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم والخلق، حتى تصور العلمانيون وأحلاسهم وأشباههم أن الدين مناقض للعلم في هذه القضية الخطيرة)^(٢).

فالباحث يجب أن يراعي في بحثه أن جهد العقل ينبغي أن يكون في خدمة النقل، وليس لتطويع النقل حتى يبدو متوافقاً مع نظرية اكتشفها عالم فلكي أو حفريه وجدوها لهيكل عظمي.

ما هو الوصف الذي يتميز به الإنسان عن غيره؟

اختلف الناس في الوصف الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، وقالوا في ذلك أقوالاً متعددة، تكاد تنحصر في أمور محددة، فمن قائل إنه تميز عن غيره بأنه حيوان ناطق، يتكلم بأجود الكلمات والعبارات ولا نسمع ذلك من بقية الكائنات، ومن قائل: تميز عن غيره بأنه عاقل حكيم يحرص على نفعه ويدفع الضرر عن نفسه، ومن قائل: تميز عن غيره بصفة الاجتماعية، فيمكن للإنسان أن يقيم الأمم والحضارات ويضع المجالس والوزارات وله دستور ومؤسسات وقواعد لضبط الحريات وتنظيم العلاقات، أما بقية المخلوقات فهي همجية عشوائية لا تتصف بصفة الاجتماعية، وقيل أيضاً: بل تميّز الإنسان بالحرية والعبودية.

● مناقشة القول بأن الإنسان تميز بالنطق والبيان:

هذه الآراء من الناحية العقلية والنقلية عليها تعقيب واعتراضات، لأننا

(١) كتاب أبي آدم، نشر دار الاعتصام، ص ١١٤، سنة ١٩٩٨.

(٢) أبي آدم: ص ١١٤.



نعلم أن مختلف المخلوقات تعيش في جماعات متوافقة متفاهمة، ولا يمكن أن تكون على هذه الحال إلا إذا كانت متخاطبة متكلمة على طريقة ما أو كيفية ما يعلمها خالقها الذي دبر أمرها، غير أننا لا نفهم مفردات الكلام بينهم، فهم بالنسبة إلينا كالأجانب من البشر الذين يسمعون كلامنا ولا يستوعبون مرادنا، ويستطيع المتخصصون الدارسون للعلوم المختلفة كعلم الحيوان والنباتات أو علم الطبيعة والجمادات أن يؤكدوا صدق هذه المعلومات، فانظر على سبيل المثال إلى مجموعات الطير والنحل أو الحيتان والنمل، كلها متوافقة متفاهمة وإن كنا لا ندري طبيعة التفاهم بين هذه المخلوقات؟

وإذا طالعنا القرآن الذي يمثل عمدة الوحي في الإسلام وجدنا أنه ينفي انفراد الإنسان بصفة الكلام ويعتبر المخلوقات بوجه عام لها تفاهم وانسجام، شأنهم في ذلك شأن البشر وما يتنوعون به في اللغات والأجناس والصور، فكما أن الإنسان يفهم لغة الآخر الذي يتكلم بنفس اللسان كذا حال اللغة التي تتحدث بها هذه المخلوقات، وما نراه بينها من رموز وإشارات، فالقرآن يؤكد أن لها قولاً ورموزاً وشفرة وكلاماً فيه عبرة ولهم قانون ونظام ومنهج وأحكام يتكاتفون في إظهاره ويتعاملون بينهم من خلاله، والله سبحانه وتعالى يسمع قولهم وكلامهم ويعلم تسبيحهم ونظامهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ بَهْمِهِمْ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال ابن كثير في تفسيره: (وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين كما ثبت في «صحيح البخاري» عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيحاً كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان ؓ، وهو حديث مشهور في المسانيد^(١)).

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ١٤٠١هـ، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٣).

فالكل متكلم ناطق بكيفية تليق به سواء تحركت شفتاه أو كان بغير فيه، وسواء أدركنا قوله أو جهلناه، أو اعتبره البعض متكلماً أو لم يعتبره، فالحقيقة التي يصدقها العقل والتي ورد ذكرها في النقل أن الله الذي خلق جميع الكائنات يعلم منطقهم جميعاً ويسمع تسبيحهم جميعاً ويرى صلاتهم جميعاً، فهو سبحانه الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، ولا شك أن الذي خلق الإنسان أو الحيوان أو غيره من المخلوقات قادر على تكوين الكائنات على أي وضع شاء، إن شاء ختم على فم الإنسان فما استطاع الكلام وإن شاء أنطق الحيوان بالحكمة وروعة البيان^(١)، وإذا كان الحيوان لا يتكلم بقولنا ولا ينطق بكلامنا فنحن أيضاً نعجز عن مخاطبتها بلغتها، والعلماء الدارسون لسلوك الحيوان يعلمون أن لغته أشد تعقيداً من لغة الإنسان، وتحتاج منا لو أردنا التعرف على شفرة الخطاب بينها وفك رموزها وألغازها إلى دراسة علمية شاقة، فمن بداهة العقل إذاً ألا نقبل القول بأن الإنسان تميز عن غيره بأنه حيوان ناطق!

● مناقشة القول بأن الإنسان تميز بأنه عاقل مفكر:

إذا لم يكن الإنسان متميزاً عن غيره بالنطق والكلام فهل يتميز بأنه عاقل حكيم يحرص على نفعه ويدفع الضرر عن نفسه؟ قبل إقامة البرهان على أن الإنسان لا يتميز عن غيره بوصف العقل والتفكير والقدرة على حسن التصرف والتدبير لا بد من معرفة المقصود بالعقل:

فالعقل آلة غيبية تابعة للروح مغروزة في الجانب الغيبي من قلب الإنسان لا نعرف كيفيتها ولكن نتعرف على وجودها ووجود أوصافها من

(١) أشير إلى حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري في كتاب المناقب برقم ٢٣٨٨ في كلام البقرة مع راعيها والذئب مع راعي الشاة ومستنقذها، وكذلك حديث عبدالله بن جعفر الذي رواه أبو داود في الجهاد برقم ٢٥٤٩ وصححه الشيخ الألباني (٢٣/٣)، لما حنَّ الجمل وذرفت عيناه وشكا صاحبه لرسول الله ﷺ، وانظر أيضاً: ابن كثير، ١٤٠١هـ، تفسير القرآن العظيم (١/١١٤).



خلال الأفعال في ظاهر البدن، فيقال: هذا عاقل إذا فعل أفعال العقلاء، وهذا مجنون إذا لم يتصف بها، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، فدللت الآية على أن العقل موجود في القلب وأن القلب يرجع إليه ويهيمن عليه، وعن طريق العقل تشحن الذاكرة في الدماغ بمختلف المعلومات، ويتم تحليل المعاني والكلمات وتركيب الجمل والعبارات، قال الثعالبي: (هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ)^(١).

والعقل موقعه في القلب، وهو بالنسبة لجهاز الإدراك البشري كموقع المعالج أو العقل الإلكتروني في جهاز الكمبيوتر، والدماغ شأنه شأن وحدة التخزين أو القرص الثابت الذي يقوم بحفظ البرامج والملفات، لا يستغني أحدهما عن الآخر في إتمام عملية الإدراك والتحكم في الحركات والسكنات، وشتان بين صنع البشر وصنع خالقهم، والغاية الرئيسية من وجود العقل معرفة الإنسان ما ينفعه أو يضره، وكيف يحصل الخير الأعلى والأفضل دائماً^(٢).

والعقل البشري منفعة مرتبطة بالتزام المناهج الدقيقة التي وضعها خالقه والتي لن نجد لها مثيلاً في مناهج البشر، فلو وضع الله للإنسان منهجاً ونظاماً ودستوراً وأحكاماً كان الكمال كله فيه وكان صلاح العقل في اتباعه، فَعِلْمُ البشر لا يقارن بعلم الله، والحكم بغير شرعه ونظامه لا يرقى أبداً إلى الحكم بما أنزل الله، ومما لا شك فيه أننا نرى جميع الكائنات في حياتها تحتوي على جهاز للإدراك يجعلها حريصة كل الحرص على نفعها ودفع

(١) الثعالبي، جواهر الحسان (٨٣/٣).

(٢) انظر المراجع الآتية في التعرف على العقل وموقعه في الإنسان: الجرجاني (١٩٦/٢)، والمحاسبي، ماهية العقل ص ٢٠٠، وابن تيمية، رسالة في العقل والروح (٢٨٧، ٢٨٦/٩)، والشوكاني (٤٥٩/٣).

الشر عن نفسها، ولذا تطبق منهج الله أكثر من غيرها، فهي أعقل عند المقارنة من كثير من الناس، فما الذي يجعل النبات يميل إلى ضوء الشمس دائماً؟ وكيف يقوم بحساب حساسية الضوء في مكانه؟ وكيف يحسب الطائر عوامل الاتزان في الهواء أثناء طيرانه؟ أليست لديه تكنولوجيا أرقى وأعلى من عقول البشر؟ هل درس في معاهد الطيران؟ أم أنه يفتقر إلى معرفة قوانين الحركة لنيوتن؟ فالنملة مثلاً لو وضعت في إناء مغلق فيه قطرات من ماء ونظرت إلى حركتها وتأملت طريقته في الخلاص من الهلاك، كيف تتمكن في حساباتها من الابتعاد عن الماء؟ ولماذا؟ وكيف علمت أن الماء يغرقها ويهلكها؟

فالإنسان ليس وحده العاقل، بل يمكن القول إنه في كثير من الأحيان أقل من غيره عقلاً وأردأ في حساباته العقلية، ويمكن بالتجربة لحيوان صغير أن يخدع الرجل الكبير، وقد روي من هذا القبيل الكثير والكثير في تاريخ الحيوان^(١)، يقول ابن القيم: (وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس)^(٢).

ومن المعلوم في الفطرة السليمة أن العاقل هو الحريص على جلب المنفعة وتحصيلها وحب الخيرات وتفضيلها، ولا نجد عاقلاً يفضل الخير الأدنى على الخير الأعلى، والعاقل أيضاً حريص على دفع المضرة وإبعادها، كما أنه يتحمل ضرراً أدنى ليحصل منفعة أعلى، ويضحى بالقليل ليحصل الكثير، ويحرص بفطرته على الباقي ويزهد بسليقته في الفاني، فالمرضى يتحمل مرارة الدواء من أجل حدوث الشفاء، هذه أوصاف العقلاء بين سائر الناس، ومن هنا كانت دعوة الإسلام مبنية على تحقيق المصلحة العليا وإيثار الآخرة على الدنيا لأنه لا خير بعد الجنة ولا شر بعد النار^(٣).

(١) ابن القيم، مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٠).

(٢) السابق (١/ ٢٤٣).

(٣) انظر حديث أنس الذي أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة برقم ٢٨٠٧.



والقرآن يخبرنا أن المعرض عن ربه يعترف بذنبه ويقرُّ على نفسه بأن الله منحه غريزة العقل لكنه لم ينتفع بها، وأنه لم يكن عاقلاً حين فضَّل دنياه على أخراه، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٢﴾ [الملك: ١٠، ١١]، قال ابن عباس رضي الله عنه في معنى الآية: (لو كنا نسمع الهدى أو نعقله، أو لو كنا نسمع سماع من يعي ويفكر، أو نعقل عقل من يميز وينظر، ودل هذا على أن الكافر لم يعطَ من العقل شيئاً)^(١).

وعلى ذلك نصل إلى أن الإنسان على العموم لم يتميز عن حوله بالعقل والحكمة إذ يشتركون معه في ذلك على الأقل، وإن كانت الحقائق تؤكد أن كثيراً من الكائنات أفضل منطقاً وعقلاً وأحكم قولاً وفعلاً في وزن مقاييس النفع والضرر.

● مناقشة القول بأن الإنسان تميز بأنه اجتماعي:

الاجتماعية صفة الإنسان عند علماء الاجتماع، فيمكنه أن يقيم الأمم والحضارات ويضع المجالس والوزارات، وله دستور ومؤسسات، وبقية المخلوقات همجية عشوائية لا تتصف بالاجتماعية!

إن الواقع يشهد بغير ذلك، فأبحاث علم الحيوان تؤكد أنها أممية حضارية، فالنحل مثلاً يقيم دولة متكاملة في كل خلية، وله دستور ثابت ونظام محكم لا يحتال عليه أحد بالتزوير والتبديل كما هو شأن الإنسان الذي يبحث عن ثغرة في القوانين ليجد مخرجاً لأطماعه وطغيانه وجرمه وعصيانته، والقانون عاجز عن ضبطه وردعه ووقفه ومنعه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٧٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٧٩﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

(١) القرطبي، ١٣٧٢ (١٨/٢١٢).

إن المخلوقات لهن قانون حازم ينفذه بشكل صارم لا مكان للمخالف
منهن بينهن وربما مصيره عندهن الموت، نرى ذلك بادياً واضحاً وظاهراً
جلياً في مجتمعات النمل والحيتان والطير والحيوان، وفي كثير من الأحيان
يتشابه سلوكهن مع الإنسان^(١)، وهذا ما يذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا
مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَتَاهُ مَا قَرَّرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ
شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد أورد البخاري في «صحيحه» قصة في شأن القروذ وإقامتها
للحدود، فهم وإن كانوا غير مكلفين بشرعنا إلا أنهم يستقبحون الزنى مثلنا،
فروى بسنده عمرو بن ميمون الأودي رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً
اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرْدَةٌ قَدْ زَنَتْ فَرَجَمُوهَا فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ»^(٢)، ومن ثم لا ينفرد
الإنسان بصفة الاجتماعية بل يشاركه غيره!

● هل يتميز الإنسان عن غيره بالحرية والعبودية؟

لا ينفرد الإنسان عن غيره بالعبادة، وقبل إقامة البرهان على ذلك لا
بد من معرفة معنى العبادة.

فالعبادة هي الخضوع التام المقترن بالإرادة وتعظيم المحبوب، فإن كان
الخضوع والطاعة بغير إرادة فلا تسمى عبادة^(٣)، ونحن نرى في سائر
المخلوقات كمال الخضوع والانضباط، كما نرى دقتها في تنفيذ التوجيهات
التي حددها الله لها، ولا يمكن أن تكون المخلوقات على هذه الكفاءة بغير
محبة وإرادة، فإنها تقوم بواجبها بصورة تفوق إخلاص العمل لدى الإنسان،
ومعلوم أن المكروه على الشيء لا يفعله بإتقان.

(١) ابن القيم، شفاء العليل ص ٧٧ بتصرف.

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٦٠/٧)، والمزي (٢٢٠/٢٢).

(٣) انظر في تعريف العبادة: ابن القيم، مدارج السالكين (١/٧٤)؛ والجواب الكافي
(١٦٤/١)؛ وشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٠/١٥٧).



وإذا كان كمال السجود للمعبود يجعل العابد في أعلى درجات المقربين كما ثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(١)، فإن السجود أيضاً كائن في بقية المخلوقات، إذ نصّت الآيات في حقها على لفظ السجود الذي يدل على كمال طاعتها وامثالها لتوجيه خالقها وانضباطها في تنفيذ منهجها وإن كنا لا نعلم كيفية أدائها لذلك، بل إن المقارنة بين الإنسان وغيره من المخلوقات في السجود وأداء الطاعات تُظهر تفوقها عليه في هذه الصفات، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، فالله عبّر عن سجودهن جميعاً بالعموم، فكلهن ساجدات بلا استثناء ولا تتخلف واحدة منهن، ولما عبّر عن سجود الإنسان عبر بالخصوص فالبعض يسجد لله والبعض لا يسجد.

قال ابن تيمية: (وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيهما ودلالتهما على الصانع فقط فالإقتصار على هذا باطل، فإن هذا وصف لازم دائم لها لا يكون في وقت دون وقت، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى)^(٢)، وقال الشوكاني: (التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره وكل المخلوقات تسبّح لله سبحانه، هذا التسبيح الذي معناه التنزيه وإن كان البشر لا يسمعون ذلك ولا يفهمونه، فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستباعات ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده)^(٣).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة برقم ٤٨٢.

(٢) ابن تيمية، قنوت الأشياء كلها لله تعالى (٤٣/٢).

(٣) الشوكاني (٢٣٠/٣)، وانظر أيضاً: ابن الجوزي (٣٨/٥)، والسيوطي (٢٨٩/٥).

وإذا كان القرآن قد نص على أن الله خلق الإنسان للعبادة كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإن العبادة ليست وصفه الذي يميزه عن غيره؛ لأن الخضوع للمعبود ومحبة وتعظيمه عام في جميع المخلوقات.

هذا فضلاً عن التصريح في شأنها بالسجود والتسبيح كما جاء في نصوص كثيرة، فلم يبق إلا أن نقول: تميز الإنسان عن غيره بأنه حر مكلف مسؤول، وهذا الوصف ليس للكائنات الأخرى على الأرض!

وهذا أيضاً لا ينفرد به الإنسان لأن غيره من الكائنات يتصف به، فمن ناحية الحرية: ما الذي يمنع الطير والحيوان أن يبحث عن طعامه وشربه حيث يشاء كالإنسان سواء بسواء؟ بل هم أكثر حرية منه في ذلك، والواقع يشهد بذلك ويؤكدده، والقرآن أيضاً يصريح به ويقرره، فالله أوحى إلى النحل أن تبحث عن رزقها حيث تشاء وتأكل من الثمرات ما تشاء: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

ومن جهة الحرية والمسؤولية فقد ثبت أن الخلق يقتصر بعضهم من بعض وأن الله يأخذ للمظلوم الحق من الظالم حتى يتحقق العدل بين سائر الخلق، فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لَتَوْدُنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(١)، وفي رواية: «يُقْتَصَرُ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى الْجَمَاءُ مِنَ الْقَرْنَاءِ وَحَتَّى الذَّرَّةُ مِنَ الذَّرَّةِ»^(٢).

كما أخبرنا الله عن مخلوقات غيبية حية تعيش مع الإنسان وتشاركه وصف الحرية والمسؤولية، وهم أيضاً مكلفون بشرعنا، ولهم مقومات

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم ٢٥٨٢.

(٢) أحمد في المسند برقم ٨٥٣٨.



التكليف التي وهبها الله لنا، قال تعالى في إثبات الحرية لهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]، وقد خاطب الله الجن والإنس كسائر العقلاء وجعلهم في التكليف والحساب سواء فقال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ومن حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه مرفوعاً في إسلام الجن وإيمانهم بالله: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ قَدْ أَسْلَمُوا، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعَوَامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلَاثًا فَإِنْ بَدَأَ لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ»^(١)، كل ذلك يدل على أن الإنسان يشترك مع الجن في وصف الحرية والمسؤولية، فهذه الأقوال جميعها عليها تعقيبات عقلية واعتراضات نقلية.

إنما ذكرنا هذه الأقوال لنبين أن الذي جاء به القرآن في التعرف على الوصف الذي يتميز به الإنسان فيه منتهى الوضوح والبيان، ومن نظر في القرآن والسنة علم أن الوصف الذي يتميز به الإنسان هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، استخلفه في الأرض وخوله وابتلاه واستأمنه لزمان محدود وإلى يوم موعود، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقد قال النبي ﷺ عن مجمل الحياة بطولها ولماذا أوجد الله الإنسان خلالها: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»^(٢).



(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام برقم ٢٢٣٦، والعَوَامِر ما يسكن المكان من الأحياء ولا يفارقه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والتوبة برقم ٢٧٤٢.

المحور الثاني:

ما المقصود بخلافة الإنسان للأرض؟

الخلافة في اللغة: تعني النيابة عن الغير^(١)، ولا بد فيها من استخلاف المستخلف بكسر اللام للمستخلف بفتحها وإذنه له بها، ولا تصح في اللغة بغير هذا.

قال الراغب: «الخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أوليائه في الأرض»^(٢).

كثير من المفسرين من السلف والخلف دارت أقوالهم حول رأيين اثنين، فمنهم من يرى أن الإنسان خليفة ينوب عن الله في تنفيذ الأحكام، والعمل بشريعة الإسلام، وهذا قول ابن مسعود وبعض المفسرين، ومنهم

(١) انظر في التعريف اللغوي لمعنى الخلافة: المناوي، ١٤١٠هـ، التوقيف على مهمات التعاريف (٣٢٢/٢)، والراغب الأصفهاني، المفردات ص ١٥٦.

(٢) ابن حزم، الفصل (٨٨/٤)، وقد نقل هذا النص بحروفه وألفاظه ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٤٩٤/١) وقارن بين هذا المعنى وما ذكره ابن جرير في قوله: (والخليفة الفعلية من قولك: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (ابن جرير: ١٤)، يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم فجعلكم خلفاء بعدهم، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر مقامه) ابن جرير (١٩٩/١).



من يرى أن الخلافة هي خلافة قرن لقرن، يخلف بعضهم بعضاً، وهذا قول ابن عباس وطائفة أخرى من المفسرين^(١).

والحقيقة أن استخلاف الإنسان في الأرض فعل من أفعال الله ﷻ، ومعلوم أن الوصف إذا كان عند تجرده عن الإضافة في موضع احتمال فكان كمالاً في حال ونقصاً في حال فالمنهج السلفي أن يقف المسلم مدققاً لا يشبهه الله إثباتاً مطلقاً ولا ينفيه عنه نفيّاً مطلقاً، بل لا بد من البيان والتفصيل والتقيد بما ورد في التنزيل^(٢)، فالاستخلاف لا يصح فيه الإطلاق والتعميم، كما لا يصح في المكر والخداع والنسيان، والاستهزاء والكيد والخذلان.

فإذا كان المكر عند التجرد كمالاً في موضع ونقصاً في آخر، فلا يصح إطلاقه في حق الله دون تخصيص، كقول القائل: المكر صفة الله، فهذا باطل لأن الإطلاق فيه احتمال اتصافه بالنقص أو الكمال، لكن يصح قول القائل: مَكْرُ الله يكون للابتلاء والمعاقبة والجزاء، فهو مكر مقيد لا يحتمل إلا الكمال فجاز أن يتصف به رب العزة والجلال^(٣) كما أثبت ذلك لنفسه فقال: ﴿وَمَكْرُورًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وما يقال في سائر الأفعال التي تدخل تحت هذه النوعية من

(١) انظر تفصيل القولين في: ابن الجوزي (١/٦٠)، وابن جرير (١/١٩٩)، وابن كثير (١/٧٠)، والثعالبي (١/٤٣).

(٢) انظر هذا المعنى في: ابن تيمية، الحقيقة والمجاز (٢٠/٤٧١)، والرسالة التدمرية ص ١٤، وابن حزم، المحلى (١/٣٤)، وابن حيدرة، حز الغلاصم (٢/٣٩)، وابن القيم، إعلام الموقعين (٣/٢١٨).

(٣) قال ابن القيم: (المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده) إعلام الموقعين (٣/٢١٨).

الأوصاف، يقال أيضاً في معنى الاستخلاف، فالاستخلاف الوارد في القرآن له عند التحقيق معنيان:

الأول: استخلاف عن نقص الأوصاف بحكم طبيعة الإنسان، ويكون عند عجز المستخلف عن القيام بملكه أو تدبير أمره، إما لغيابه أو لقلة علمه، وإما لمرضه أو موته، كاستخلاف القائد نائباً على جنده أو قومه، كما ورد في قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، أو كما روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخْلِفُنِي فِي الصُّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: «أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٍّ بَعْدِي»^(١).

الثاني: استخلاف عن كمال الأوصاف، وذلك إذا كان لتشريف الإنسان وإكرامه، أو اختباره وامتحانه، وليس لعجز المستخلف عن القيام بشؤونه، كالطبيب في سنة الامتياز، إذا فحص مريضاً في حضرة الأستاذ، فإن اجتاز الامتحان فقد فاز ونال الشرف بشهادة عظيمة، وهذا معلوم في كل فطرة سليمة، وإن لم يؤدِّ الواجب على الوجه المطلوب عاقبه الأستاذ بالرسوب ونصحه بالاجتهاد وتصحيح العيوب، وإن تكرر منه الفشل والنسيان عاقبه بالمنع والحرمان من أي شرف أو فضل، والله المثل الأعلى، يصح على ذلك أن نقول إن الإنسان خليفة عن الله على وجه الامتحان.

فلما قال الله ﷻ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، تحقق في الخلافة المعنيان:

الأول: أن يخلف بعضهم بعضاً على وجه النقصان.

والثاني: أنه خليفة لله في الأرض على وجه الامتحان، وبهذا يزول الإشكال ويتألف الرأيان.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي برقم ٢٤٠٤.



فقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، يعني مستخلفين عمن سبق على وجه النقص وتعاقب الأجيال ومستخلفين في أرض الله أيضاً على وجه الكمال، وهكذا ابتلى الله سائر الناس في الحياة واستخلف الإنسان واسترعاه، كما جاء أيضاً في قول الله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، كل هذه الآيات وغيرها تدل على المعنيين معاً، أن الإنسان خليفة لمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية، وخليفة لله على وجه الكمال، استخلفه رب العزة والجلال لإظهار المعاني الشرعية غير أنه لا حول له ولا قوة في معاني الربوبية.

فالله استخلف الإنسان في الأرض وهو من فوق العرش معه يتابعه ويراه ويسمعه، لكنه بيّن أن استخلافه في هذه الدار على وجه الابتلاء والاختبار والأمانة والانتظار إما إلى جنة وإما إلى نار كما قال رب العزة والجلال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقال أيضاً: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

فهو استخلاف ليس عن غيبة المستخلف كما يتوهم من لم يفهم الآيات على الوجه الصحيح، فإن الاستخلاف وإن اقتضى الغياب بين الناس في العادة إلا أنه السبب المباشر في وجود عالم الغيب والشهادة، فالله غيب بالنسبة للإنسان لأن الله جعل مداركه محدودة، فهما غيب وشهادة ليس بالنسبة لعلم الله بخلقه ولكن بالنسبة لعلم الإنسان بفعل ربه، فقال تعالى في شمولية علمه لكل صغيرة وكبيرة في خلقه: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وقال في المقابل عن حدود علم المستخلف: ﴿وَمَا

أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فعلم الإنسان مهما بلغ محدود، وحواسه لها حدود وقيود، وسوف يحاسب عليها في يوم موعود، ولذلك كان النطق بشهادة الحق أمراً وتكليفاً، وترك الزور وقول الصدق مدحاً وتشريعاً، كما قال سيد الخلق تحذيراً وتخويفاً: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعَقْوُ الْوَالِدَيْنِ»، وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لَا يَسْكُتُ^(١).

فمن الجهل والعيب ادعاء الإنسان لعلم الغيب أو القول على الله بلا علم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ومن أجل ذلك أيضاً كلف الله الإنسان بالتصديق الجازم لأركان الإيمان وكل خبر ورد ذكره في القرآن، فأركان الإيمان التي جاء بها دين الله وظهر من خلالها سر الحياة حصرتها رسول الله ﷺ في أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فمن حديث جبريل عليه السلام: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ)^(٢).

أما بيان سر الحياة في هذه الأركان وتفسيرها للحقائق العظمى في حياة الإنسان على النحو المقصود في ترتيب الرسول للأركان، فيراه أصحاب البصيرة مشهوداً وبين الكلمات موجوداً، فالمعنى الموضوع بين أركان الإيمان أن تؤمن بالله الذي أنزل ملائكته بكتبه على رسله ليحذروا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب برقم ٥٦٣١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٨.

المستخلفين من اليوم الآخر، فإذا انتهى الناس بعد العرض والحساب واستقروا في الآخرة للثواب والعقاب، عندها يتم قدر الله على نحو ما ورد في أم الكتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وهذه حقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره، فمن حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(١).

ومن ثم فإن استخلاف الإنسان في الأرض مقيد بالخضوع للتكليف وإظهار العبودية، والعمل في أرض الله بالإرادة الشرعية، والحكم في الرعية بالشرعية الإسلامية، كما ورد الخبر عن خير البرية ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٢)، وكل الآيات التي وردت في استخلاف الله للإنسان تدل على المعنيين معاً: أن الإنسان خليفة لمن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية، وخليفة لله على وجه الكمال.

وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله في معنى من معاني الربوبية، أو تخويلاً لغيره في إرادته الكونية، سبحانه وتعالى أن يتخذ شريكاً له في ملكه، أو يتخذ ولياً من الذل وينعزل عن خلقه، يقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

والذين نفوا أن يكون الإنسان خليفة عن الله في أرضه إنما أرادوا هذا المعنى لأن الإطلاق يشملهم.

● لماذا استخلف الله الإنسان في الأرض؟

السؤال الذي يطرح نفسه على الأذهان: لماذا استخلف الله الإنسان في الأرض على وجه الخصوص ولم يستخلف غيره؟ أو لماذا اختار الله الإنسان

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر برقم ٢٥٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة برقم ٨٥٣.

بالذات ليخوله في الأرض ويكرمه بهذه المنزلة الرفيعة، فهل الإنسان في ذلك التميز مجبور مقهور؟ أم أنه مخير مسؤول وله في ذلك دور معقول؟ لأنه ربما يحتاج إنسان على ربه، أو يحاول التملص من ذنبه بأنه لم يكن يرغب من الأساس أن يكون كسائر الناس مستخلفاً في الأرض؟

ونحن إذا حاولنا التفكير بمفردنا في هذه المسألة والبحث عن إجابة لهذه المشكلة فلن نصل إلى إجابة مقنعة، لأن الإجابة عن هذا السؤال لا يستطيعها البشر، فهي أقوى من حدود العقل وإدراكه، لكننا إذا بحثنا في آيات القرآن ودققنا النظر وأعملنا الأذهان سنجد البيان والبرهان بإذن الله واضحاً جلياً، فقد بين الله ﷻ في سورة «الأحزاب» أنه أجرى ابتلاء خاصاً بين الإنسان وبقية المخلوقات التي سخرها له بعد ذلك، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي قبل الأمانة حين عرضها على الكائنات فأبين أن يحملنها ورفضنها وأشفقن منها، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، لكن ربما يسأل سائل عن ماهية الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال والإنسان؟

والجواب والله أعلم: أن الله ابتلى هذه المخلوقات وخيّرهما في الموافقة على مبدأ قبول الأمانة وتحمل الثواب والعقاب، حيث سيكلف من يقبلها بمراعاتها على طريقة ما يشرعها لهم، كما روى عن عبدالله بن عباس (رضي الله عنه) أنه قال: (يعني بالأمانة الطاعة، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب! وما فيها؟ قال: إن أحسن جزيت وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها)^(١).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٥٨/٢)، وانظر أيضاً ما روي عن ابن عباس في ذلك: ابن كثير ١٤٠١هـ، (٥٢٣/٣) والقرطبي (٢٥٥/١٤).

هذا العرض خيّر فيه السماوات والأرض والجبال والإنسان بنص القرآن، والعقلاء عن الله يفهمون من الآية اللوازم الآتية:

أولاً: أن المخلوقات التي خيّر في حمل الأمانة أو رفضها وهي السماوات والأرض والجبال والإنسان كانت على درجة واحدة في إمكانية القبول أو الرفض، فلهن إرادة حرة مخيرة وليست مجبرة، ولولا أن لهن اختياراً حراً ما عرض عليهن قبول الأمانة أو رفضها ولما عبر عن رأيهن بقوله عنهن: ﴿فَأَيُّكُمْ أَنْ يَحْمِلَهَا وَآشَفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فالإباء والرفض والإشفاق عكسه القبول والرغبة والموافقة، وهذا دليل على أن الله خيرهن دون جبر منه عليهن في قولهن أو فعلهن.

ثانياً: أن هذه المخلوقات التي عرضت عليها الأمانة لهن عقل وعلم ويتصفن بإدراك وفهم، لأنه لا معنى لتخييرهن في أمر لا يعرفن عنه شيئاً، فهذا نوع من العبث لا يقبله العاقل على نفسه فضلاً عن ربه، فهل يعقل أن تخير أمياً جاهلاً في أن يكتب بالعربية أو اللاتينية؟

ثالثاً: دلت آية الأمانة على أن الإنسان له وجود غيبي سابق على الزمان، وهذا الفهم تؤيده آيات كثيرة وردت في شأن آدم وحواء وهما في السماء في جنة الابتلاء قبل نزولهما إلى الأرض، وكذلك أحاديث متعددة تدل على خلق الله لجميع الذرية وإيجاد أفراد النوعية الإنسانية لفترة وقتية معينة عند أخذ الميثاق عليهم لتعريف الحقوق والواجبات وإظهار الحكمة في تدبير أمر المخلوقات^(١).

(١) أعني الميثاق الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال النحاس: (أحسن ما قيل في هذا ما تواترت به الأخبار عن النبي ﷺ أن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق ليفهمهم ما أراد) معاني القرآن الكريم (١٠٢/٣). وانظر: تحفة الأحوذى (٨/٣٦٠).

ومن ثم علمنا من مضمون الآية أن هذه المخلوقات يعقلن كلام الله ويدركن ويفهمن ويسمعن وهن أحرار أخيار في قولهن وفعلهن، وإلا كان تخييرهن لهواً ولعباً، وقد نفى الله العبث عن نفسه نفياً قاطعاً فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعبَثٍ ۖ مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

قال ابن الجوزي: (قول الأكثرين في المراد بعرض الأمانة على السماوات والأرض أن الله تعالى ركب العقل في هذه الأعيان وأفهمهن خطابه وأنطقهن بالجواب حين عرضها عليهن، ولم يرد بقوله «أبين» المخالفة ولكن أبين للخشية والمخافة، لأن العرض كان تخييراً لا إلزاماً، و«أشفقن» بمعنى خفن منها أن لا يؤديها فيلحقهن العقاب)^(١).

ومما روي عن السلف في ذلك أن عمر بن عبدالعزيز رحمته الله عرض العمل على محمد بن كعب فأبى فقال له: أتعصي؟ فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الله تعالى حين عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها هل كان ذلك منها معصية؟ قال: لا، فتركه^(٢).

وقال الواحدي: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال، الفرائض التي افترض الله سبحانه على العباد وشرط عليهم أن من أذاها جوزي بالإحسان ومن خان فيها عوقب، أفهمهن الله سبحانه خطابه وأنطقهن فأبين أن يحملنها مخافة وخشية لا معصية ومخالفة)^(٣).

● لماذا عرضت الأمانة وماذا حدث لمن رفضها؟

الأمانة عرضت على المخلوقات ليتحقق عدل الله في الكون وينتفي الظلم ويستقر الأمن، فمن عدله أنه لا يجبر مخلوقاً على فعل شيء وهو

(١) ابن الجوزي، ١٤٠٤ (٦/٤٢٩).

(٢) السيوطي، ١٩٩٣ (٦/٦٧٠).

(٣) الواحدي (٢/٨٧٥)، وانظر أيضاً: المروزي، ١٤٠٦هـ، تعظيم قدر الصلاة (١/٤٧٩).



مقهور فقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩) [الكهف: ٤٩]، فنفي الظلم مطلقاً يدل على كمال العدل، ولكمال عدله قامت السماء والأرض بأمره على الحق والميزان كما ورد في سورة «الرحمن»: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) [الرحمن: ٧]، وقال أيضاً في سورة «الدخان»: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ (٣٨) [الدخان: ٣٨، ٣٩].

قال أبو السعود: (وضع الميزان أي شرع العدل وأمر به بأن وفر كل مستحق ما استحقه ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم به أمر العالم واستقام).^(١)

ومن لوازم التخيير وكمال العدل أنه كان من الممكن لجميع من ورد ذكره في آية «الأحزاب» رفض الأمانة أو قبولها، وكان من الممكن أيضاً رفض الإنسان لحملها أو استجابة السماوات، وكذا المقال في حال الأرض والجبال، وللعقل أن يسأل على سبيل إظهار حكمة الله وبلوغ العدل منتهاه: ماذا لو فرضنا أن الكل رفض الأمانة أو اختارها السماوات أو الأرض أو الجبال؟ وجواب ذلك أن يقال: الله أعلم، لكن العالم في تركيبه ستغير معالمه على وضع جديد يعلمه الله حتى يصل العدل في ملكه منتهاه وتظهر حكمته في سائر المخلوقات كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَاءُ يَذْهَبَكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) [إبراهيم: ١٩، ٢٠].

وإذا كان الحق تبارك وتعالى يفعل ما يشاء في ملكه والخلق قائم على أمره وكل شيء مفتقر إلى قضائه وقدره، إن شاء استخلف الإنسان بغير

(١) أبو السعود (١٧٧/٨)، وانظر أيضاً في هذا المعنى: ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص ٣٣٣؛ وابن القيم، ١٩٧٣، إعلام الموقعين (١/١٣٣)؛ والشاطبي، الموافقات (٣٠٩/٤).

إرادته، وإن شاء أجبر السماء على حمل أمانته، وإن شاء أكره الأرض والجبال بقدرته، إلا أن عدله من لوازم حكمته، وتخيير المخلوقات في حمل الأمانة من كمال حجته، واستقرار العالم وأمنه من بديع صنعته، حتى بدت الأمور للعيان أن نتيجة التخيير قسمان، قسم رفض الأمانة وقسم يتمثل في موافقة الإنسان.

فبعد تخيير الله للسموات والأرض والجبال في قبول الأمانة أو رفضها، وبعد ممارسة حقهن في الاختيار ورفضهن لها، كان من كمال عدل الله تعالى أنه خيرهن مرة أخرى، ولكن التخيير هذه المرة كان لإظهار الرضى منهن في الطاعة التامة، والاستجابة لأمر الله إذا كلفهن بعمل ما أو سخرهن لوظيفة ما حتى وإن كانت لصالح الإنسان الذي قبل الأمانة، فاخترن جميعاً الطاعة والخضوع لله ﷻ، يكلفهن بما شاء وسوف يلتزمn بأحكام المشيئة والقضاء تمام الالتزام.

وبهذا التخيير الثاني قامت المخلوقات في السموات والأرض على محبة الله، والرضى بأمره في العمل على استقرار الكون وأمنه، وبقائه على الدوام ثابتاً في أمان لأداء الأمانة التي حملها الإنسان، ومعلوم أن تحقيق الأمن والأمان المبني على الرضى أبلغ من الأمن والأمان المبني على العدل فقط.





المحور الثالث:

كيف كانت بداية الكون في مرحلته الأولى؟

بداية الخلق قبل وجود السماوات والأرض لم يذكر فيها الحق سبحانه وتعالى سوى العرش والماء واللوحي والقلم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] ومن حديث عمران: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ»^(١)، وعند الترمذي: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا اكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٢).

ومن باب الفضول ربما يسأل سائل ويقول: وماذا قبل العرش والماء؟ والجواب أن الله قد شاء أن يوقف علمنا بالمخلوقات عند العرش والماء، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالله أعلم هل توجد مخلوقات قبل العرش والماء أم لا؟ لكننا نعتقد أن وجودها أمر ممكن متعلق بمشيئة الله وقدرته، فالله أخبرنا أنه يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، فالله ^{سبحانه} متصف بصفات الأفعال، ومن لوازم الكمال أنه فعال لما يريد على الدوام أزلاً وأبداً، سواء كان ذلك قبل العرش والماء أو بعد وجود العرش والماء، لكن الله أوقف علمنا عند

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم ٧٤١٨.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن برقم ٣٣١٩ (٥/٤٢٤)، وصححه الشيخ الألباني.

هذا الحد، كما أن جهلنا بذلك لا يؤثر فيما يخصنا من معلومات ضرورية لازمة لتحقيق الحكمة من خلق الكون والإنسان.

قال سليمان التيمي رحمته الله: «لو سئلت أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء؟ لقلت: لا أعلم»^(١)، ويعقب الإمام البخاري رحمته الله بقوله: «وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، يعني إلا بما بين»^(٢).

وقد بيّنت الأدلة القرآنية والنبوية أن الله خلق الأرض والسماء بعد العرش والماء، وأنه خلقهما على مرحلتين تحقيقاً لحكمته في ابتلاء الإنسان: المرحلة الأولى وضع الرق والدخان، والمرحلة الثانية بعد خلق آدم وكما نراه الآن، وكل ذلك تمّ في عدة حقب زمنية الله أعلم بمقدارها، فالأيام التي خلق الله فيها الكون مدة طويلة جداً، لا يمكن أن نتصور لهما مقياساً زمنياً حركياً معلوماً، ربما تساوي اللحظة فيها ملايين السنين في حساباتنا.

يقول ابن تيمية: «فالذي جاء به القرآن والتوراة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع أئمة أهل الكتاب، أن هذا العالم خلقه الله وأحدثه من مادة كانت مخلوقة قبله، كما أخبر في القرآن أنه استوى إلى السماء وهي دخان، أي بخار، فقال لها وللأرض: اثبتا طوعاً أو كرهاً.. إلى أن يقول: وخلق ذلك في مدة غير مقدار حركة الشمس والقمر، كما أخبر أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: ٥٩]، والشمس والقمر هما من السماوات والأرض وحركتهما بعد خلقهما، والزمان المقدر بحركتهما وهو

(١) البخاري: أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل، ١٣٩٨هـ، خلق أفعال العباد، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، طبعة دار المعارف السعودية، الرياض ص ٣٧.

(٢) السابق ص ٣٧.



الليل والنهار التابعان لحركتهما إنما حدث بعد خلقهما، وقد أخبر الله أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: ٥٩]، يقول شيخ الإسلام: فتلك الأيام مدة وزمان، مقدر بحركة أخرى غير حركة الشمس والقمر^(١).

• أيهما خلق أولاً: السماء أم الأرض؟

بدأ الله ﷻ بخلق الأرض في المرحلة الأولى، خلقها من الماء الذي نتج عنه الدخان أو الأبخرة المتصاعدة، وقيل: بل خلق الدخان ثم كوّن منه الأرض، وهما قولان للسلف، قال أبو المعالي:

«والناس مختلفون في خلق السماء وما فيها والأرض وما فيها باعتبار التقدم والتأخر لتعارض الظواهر في ذلك، فذهب بعضهم إلى تقدم خلق السماوات لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧] وذهب آخرون إلى تقدم خلق الأرض لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفُرُونَ بِأَلَدَى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]»^(٢).

ولا تعارض بينهما لأنه من المعلوم الآن أن الاندماج النووي بين المواد يولد غباراً ذرياً كثيفاً وأبخرة ودخاناً، ثم خلق الله الجبال من فوق الأرض ككتل صخرية ضخمة غير مستقرة، ولم تكن مثبتة ولا الأرض مدحوة كما هو حالها في المرحلة الثانية، وقدر الله أيضاً كل عناصر الإيجاد والإمداد في الأرض للأشياء التي ستعمرها، فكان مجموع الزمن للمرحلة الأولى أربعة أيام، أو أربع حقب زمنية الله أعلم بمقدارها كما بيّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) ابن تيمية: ١٣٩١هـ، درء تعارض العقل والنقل (١/١٢٣)، وانظر له أيضاً: ١٤٠٤هـ، دقائق التفسير (٣/٢٢٧).

(٢) الألوسي: أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله بن شهاب الدين، ١٩٧١م، ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة ط٢، بيروت - المكتب الإسلامي ص٢٠، وانظر أيضاً: ابن الجوزي: زاد المسير، (٧/٢٤٧).

قال الإمام البخاري: «خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى»^(١)، وكثير من المفسرين يرون في هذه الآيات أن الله تعالى أيس من الماء الذي كان عرشه عليه أرضاً فثار منه دخان فارتفع وسما فجعله سماء، فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وكانت عند خلقها غير مدحوة.

قال ابن كثير: «وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء، إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢]، قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض، وفي «صحيح البخاري» أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عن هذا بعينه؟ فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً.. وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾ ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل، لما أكملت سورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية، دحا بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم»^(٢).

(١) صحيح البخاري (١٨١٦/٤).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٦٩/١)، وانظر: القرطبي: (٢٥٦/١)، والطبري: (١٩٥/١)، والواحدي: الوجيز (٩٥٢/٢)، وابن الجوزي: زاد المسير (٢٤٥/٧).



وقد دلت الأخبار الثابتة أيضاً على وجود بعض الكائنات التي أسكنها الله السماء والأرض في وضعها الأول قبل خلق الإنسان وهم الملائكة والجن، فالملائكة خلقوا من نور والجن خلقوا من نار كما قال ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مِمَّا وَصِفَ لَكُمْ»^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ (٢٦) وَلَلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ۝ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ (٢٨)﴾ [الحجر: ٢٦ - ٢٨]، فالملائكة كانت أسبق من الإنسان في الوجود، كما أن الله تعالى لم يبين لنا في شأنهم تفصيل البداية في خلقهم أو كيف تحققت حكمته في تدبير أمورهم، غير أن الجن خلقوا للابتلاء والملائكة كانت في السماء، وأن الله جعل بينهم إبليس في الرفعة والمكانة، ثم خلق الله الإنسان من تراب اختلط بالماء فصار طيناً ثم صار الطين صلصالاً وبعد ذلك حمأ مسنوناً، ثم سواه الله على هيئة قويمة وصورة سليمة^(٢)، ثم أراد الله ﷻ أن يظهر حكمته في الإنسان من خلال ابتلائه بمن حوله من المخلوقات فابتلاه أولاً مع السماوات والأرض والجبال في قضية الأمانة، ثم ابتلي به ثانياً من سبقه في الوجود ممن لم تعرض عليهم الأمانة وهم الملائكة والجن، وذلك حتى يظهر كمال العدل في الخلق وتقوم السماوات والأرض على الحق والميزان.

● الكون في مرحلته الثانية أعدَّ من أجل الإنسان:

أما المرحلة الثانية من نشأة الكون فقد حدثت وتمت بعد الوجود الغيبي للإنسان، حيث ترتب تكوينها على قضية الأمانة وقبول الإنسان لها ورفض السماوات والأرض والجبال لحملها، وقد علمنا أن الله خير من رفضها في التسخير لمن قبلها فقالتا: أتينا طائعين، فلما قالت السماء

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد عن عائشة برقم ٢٩٩٦.

(٢) أدلة ذلك في سورة الروم: ٢٠، والفرقان: ٥٤، والسجدة: ٧، والرحمن: ١٤، والحجر: ٢٨، والانفطار: ٦ - ٨.

والأرض: أتينا طائعين، فصل السماء عن الأرض ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، بناها سبعا طباقاً، ﴿رَفَعَ سَنَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ۖ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٨، ٢٩]، ثم ثنى بالأرض وبسطها ودحاها ومدها ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٣٠] أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٢]، لتستقر الأرض للإنسان متاعاً على وجه الابتلاء والامتحان.

وهنا ملاحظة هامة فقد علمنا أن الأيام الستة التي ذكرها الله في نشأة الكون، إنما هي أحقاب زمنية كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، لكن هل الأيام الستة التي تم بعدها استواء الرحمن على عرشه هي مدة المرحلة الأولى والثانية أم المرحلة الأولى فقط؟ الله أعلم، لأن الأدلة تحتل الأمرين معاً، ولم أصل في ذلك إلى ترجيح معين، لكن المؤكد أن الأيام الستة التي تمت فيها نشأة الكون قد تطلق ويراد بها أيام الأسبوع في عرفنا، وقد تطلق ويراد بها الحقب الزمنية في بدء الخلق، فالله أعلم بمقدار الزمن الذي يوازي عدد الساعات فيها، وعلى ذلك تحمل الأحاديث التي ورد فيها تسمية الأيام.

لكن ربما يستشكل البعض كيفية وجود الإنسان بين المرحلتين اللتين مرَّ بهما الكون عند النشأة والتكوين، على اعتبار أن الدراسات العلمية البحتة قدَّرت عمر الكون على أقل تقدير بعشرين مليار سنة^(١)، وعمر البشرية الفعلي من الآن إلى نزول آدم ﷺ إلى الأرض على أبعد التقديرات لا يتجاوز المائة ألف سنة، هذا بالإضافة إلى حديث أبي هريرة ؓ الذي فيه تسمية الأيام حيث قال ﷺ: (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ ﷻ الثَّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ الثَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَنَى

(١) أميد: شمشك، ١٩٨٦، الانفجار الكبير أو مولد الكون، ترجمة أورخان محمد علي، بغداد مطبعة الشعب، ص ٥٣.



فِيهَا الدَّوَابُّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ^(١).

فهذا الحديث يتبادر منه أن آدم عليه السلام خلق بعد أن تم الخلق في الأيام الستة، فكيف يمكن توجيه الموضوع وفق دلالة الآيات والأحاديث مجتمعة؟

بعد الاتفاق على اعتبار الأيام الستة حقبةً زمنية غيبية الله أعلم بمقدارها، وبعد ملاحظة الفرق بين المقياس الزمني لوجود آدم عليه السلام في البدء ثم إسمكانه في الجنة في عالم الغيب، والمقياس الزمني بعد نزوله إلى الأرض في عالم الشهادة، ومن غير استبعاد كون اللحظات في الأيام المذكورة ربما توازي ملايين السنوات في حساباتنا، فيمكن الجمع بين الآيات والأحاديث من خلال توجيهين للموضوع:

الأول: أن الله ﷻ خلق الأرض في يومين كما قال: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وخلق ما عليها من الجبال ومتطلبات الإيجاد والإمداد في يومين فيكون المجموع أربعة كما قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ فَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

وقد ظهرت السماوات كدخان ناتج عن عملية تكوين هذه المخلوقات ضمن الأيام الأربعة التي تمثل المرحلة الأولى من نشأة الكون، فالسمااء إذا كانت دخاناً كائناً فوق الأرض، ثم خلق الله ﷻ الملائكة في المرحلة الأولى حيث كانت موجودة قبل وجود الإنسان كما تقدم، والمرحلة الثانية من نشأة الكون تمت بعد وجود الإنسان حيث ترتب تكوينها على قبوله للأمانة ورفض السماوات والأرض والجبال لها، وكذلك خلق الله الجن في الأرض التي كانت بوضعها الأول - الجبال غير مستقرة والأرض غير مدحوة - خلقهم للعبادة والابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد برقم ٢٧٨٩ (٤/٢١٤٩).

لِيَعْبُدُونَهُ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالجن أبناء الجان - إبليس على رأي الجمهور - خلقوا قبل وجود الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٦١﴾ وَلَبَّاءَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٦٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧].

ثم خلق الله آدم من تربة الأرض بين الملائكة كما تقدم^(١)، ولم يكن وقتها شيئاً مذكوراً^(٢)، ثم عرض عليه الأمانة بعد أن عرضها على السماوات والأرض والجبال، فرفضن وأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، فخير من رفض الأمانة في أن يكون مسخراً لمن قبلها ووافق على حملها، فقلنا أتينا طائعين، كل هذه الأحداث توالى في أعقاب المرحلة الأولى التي تمت في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فلما قالت السماوات والأرض: أتينا طائعين، فصل السماء عن الأرض ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَعَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، بناها سبعاً طباقاً، ورفع سمكها فسواها، وجعل فيها الشمس والقمر تحديداً للزمن الذي يتعاقب على الإنسان، ثم ثنى بالأرض وبسطها ودحاها كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٥﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢٦﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٢]، لتستقر الأرض للإنسان متاعاً له ولأنعامه على وجه الابتلاء، كل ذلك في يومين آخرين تضاف إلى الأربعة السابقة، فيكون المجموع ستة أيام، ثم بعد ذلك استوى على العرش، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الحديد: ٤].

الأمر الثاني: على اعتبار صحة ما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي فيه تسمية الأيام أو الحقب الزمنية من السبت إلى الخميس، والذي يدل على أن آدم عليه السلام وجد بعد أن تم الخلق في ستة أيام، فتوجيه

(١) ص ١٣٣.

(٢) الواحدي (٢/١١٥٧).



الموضوع إذا ثبت رفع هذا الحديث، لأن بعض العلماء يجعلونه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، كما قال ابن كثير: «وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري، وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي»^(١).

ولكن على اعتبار ثبوت الحديث يمكن توجيه الموضوع والجمع بين الروايات بأن الله خلق الأرض في يومين، كما قال: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، وخلق ما عليها من الجبال ومتطلبات الإيجاد والإمداد في أربعة أيام، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾^(٢)، فيكون المجموع ستة أيام من يوم السبت إلى يوم الخميس كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد ظهرت السماوات كدخان ناتج عن عملية تكوين المخلوقات ضمن هذه الأيام، ويكون قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، يراد به المرحلة الأولى، وقد خلقت الملائكة في هذه المرحلة وكذلك الجن، ثم في المرحلة الثانية خلق آدم يوم الجمعة من تربة الأرض، ثم عرضت عليه الأمانة بعد عرضها على السماوات والأرض والجبال، فرفضن وأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فخير الله من رفض الأمانة في أن يكون مسخراً لمن قبلها، فقلنا أتينا طائعين، كل ذلك بعد المرحلة الأولى التي تمت في ستة أيام، ثم لما قالت السماوات والأرض أتينا طائعين، فصل السماء عن الأرض ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم ثنى بالأرض وبسطها ودحاها: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٣) أخرج منها ماءها ومَرْعَهَا^(٤) [النازعات: ٣٠، ٣١]، لتستقر الأرض لاستخلاف الإنسان.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٠).

ومهما كان توجيه الموضوع أو الاجتهاد في الجمع بين النصوص فإن الكون أعدّ بعناية خاصة من أجل الإنسان، فهو الوحيد المستفيد من كل ما على الأرض بنص القرآن، وكل ما فيها مخلوق لأجله هو ومن أجل استخلافه الذي كرمه الله به وميّزه عن غيره.

ولذلك فإن الله لما بيّن حال من رفض الأمانة فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، قال بعدها مباشرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، لبيّن ابتلاء الإنسان بمن قبل الأمانة من جهة ثم ابتلاؤه بمن لم تعرض عليه الأمانة - وهم الملائكة ومعهم إبليس - من جهة أخرى، فالله ﷻ منح الإنسان في معيشته على الأرض مقومات الخلافة من العلم والحرية والاستطاعة، وخوّله في ملكه وكلفه بأمره ليمثل لشرعه في كل ما منحه وأعطاه، هل سيكون راعياً أميناً في دينه ودنياه؟ مُسْلِماً مُسْلِماً خاضعاً لأحكام الله؟ كما قال جل في علاه: ﴿إِنَّ أَلْأَمْرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الاعراف: ١٠].

وانظر إلى ما ورد في القرآن من تنبيه دائم لهذه المعاني، حيث يذكر الله كل إنسان بهذه النعم التي لا تحصى ولا تعد، والتي توجب الشكر بغير حد، فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [٢٢] وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ [٢٣] وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

وقال في تسخير الأرض ومن عليها وتهيئة السماء بشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا



تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا شِقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَاللِّيلَ وَالْيَغَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ [النحل: ٥ - ٩].

فهذه الأنعام لما كانت مسخرة للإنسان تكريماً له إذ قبل الأمانة شرع لنا ربنا أن نتذكر خالقها ومالكها ونذكره بالعلو والتنزيه عند الاستواء على ظهورها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٧﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

والله تعالى يذكر الإنسان في غير موضع من القرآن بعله وجود المخلوقات على هذه الحال، والنظر في نعمه التي توجب النظر والتفكر والشكر والتذكر والرجوع إلى الله بدوام الافتقار، كما قال رب العزة والجلال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٥﴾ ... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ١٠ - ١٨].

ويلاحظ في منهج الآيات المماثلة أن الله يعدد نعمه وفضله على الإنسان بتهيئة الأسباب ثم يذكر بعدها إلزامات التكليف والحساب، لأن هذه المخلوقات سخرها له وطوعها كأمانة استخلفه عليها وسوف يسأل عنها بالضرورة، والقرآن والسنة فيهما من هذا القبيل الكثير والكثير، فكل هذه المخلوقات مسخرات بأمر الله قائمات على خدمة الإنسان، فإذا انتهت دار الابتلاء والامتحان هيا الله دار الحساب والجزاء، فتكورت الشمس وتبعثرت النجوم وسيّرت الجبال وعطّلت العشار وسجّرت البحار وزلزلت الأرض زلزالها^(١).

(١) من أدلة ذلك ما ورد في سورة التكوين: ١ - ١٤، والانفطار ١ - ٥، والزلزلة: ١ - ٨، وغير ذلك من سور القرآن.

فالسماوات التي رفعها الله وفصلها عن الأرض من أجل الإنسان، سوف تتغير بعد انتهاء دورها وأداء وظيفتها في انقلاب كوني شامل لهذه الحياة يتناسب مع دار الجزاء، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعَابِ وَيَزَلَّ الْأَمْثَلُ يُخْرِجُ الْبَحْرَ مِثْقَالَ دُنْجَرٍ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَثَرٍ ذَخِيرٌ ۝٨٧ وَزَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ لِذِي الْإِنْفِقِ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَيْرٌ إِمَّا تَحْكُمُونَ ۝٨٨ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَتَّبِعُ وَهُمْ مِنْ فَجْرِ يَوْمٍ يَمِيزُ الْآمِنُونَ ۝٨٩ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل: ٨٧ - ٩٠].

كما أن الله تعالى أخفى عن الناس وقت قيام الساعة، لتظهر حكمته في ابتلاء الإنسان، ويرى سعيه في العبادة والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [طه: ١٥، ١٦]، وبذلك يحرص الإنسان دائماً على سعادته وأمنه في الآخرة قبل الدنيا، ويعلم أن سعادته في الدنيا مرهونة بالتزام تدبير الله الشرعي والاستعانة بتدبيره الكوني، فيرجع على الدوام إليه ويتوكل عليه ويخافه ويرجوه ويحبه ويدعوه، لعلمه أن الأمر يرجع إلى من كانت أزمة الأمور بيديه ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

فانظر إلى الكون تراه في كمال الانضباط، كل يسير خاضعاً لأمر الله، لا الشمس تتأخر لحظة، ولا القمر يتخلف عن مواعده ليلة، ولا النجوم تترك مواقعها، يقول تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٤٠].

فلم يكن الكون على هذه الحال وبهذا الكمال، لمجرد انفجار مفاجئ



كما تقول نظرية الانفجار، بل بنى أركانه الواحد القهار وأمسكه بقدرته من التخطيط والزوال كما بين ذلك للجميع فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقال أيضاً: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، فالكون في ثبات وأمان تتوالى أيامه على مر الزمان منذ أن رفع الله السماء وفتحها وبسط الأرض ومدّها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفِتُمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

ولم يكن هذا الإنسان يوماً خلية أولية ثم تطورت فأصبحت قردة برمائية ثم تطورت فكونت السلالة البشرية إلى غير ذلك من فكر دارون ودعاوى الماركسية، وعلى ذلك يمكن لكل عاقل أن يدرك سر خلق العالم على هذا الوضع الذي نراه، وهل سيبقى على ذلك أبد الأبدین؟ أم ليوم معلوم وأجل محتوم قدره الله؟ وهل هذا العالم الذي نعيش فيه على الأرض يحقق بالفعل تميزاً مخصوصاً للإنسان؟ وكثير من الأسئلة التي تتردد على الأذهان سوف يوجد لها الدليل والبرهان بإذن الله.

وهنا قضية هامة أثبت العلم صدقها، فالأرض مع كونها كوكباً صغيراً في مجموعة نجمية يطلق عليها المجموعة الشمسية، وهي كما تقول الدراسات الحديثة مجموعة صغيرة في مجرة متوسطة بين مائة ألف مليون من مختلف المجرات، إلا أنهم اكتشفوا أن هذا الكون باتساعه المستمر إنما جعل لثبات الأرض واستقرارها الزمني فترة مخصوصة تمثل زمن الحياة الدنيا.

هذا من خلال الدقة المتناهية في مدار الأرض حول الشمس ومدار الشمس حول مركز المجرة، ومركز المجرة يدور في فلك لا يعلم مساره إلا الله، بل يمكن القول إن هذا الكون هو أساس الاستقرار لجميع الكائنات

التي على الأرض والتي هيئت بالطبع من أجل استخلاف الإنسان، وقد ذكرنا في المقدمة ما أشار إليه العالم الفزيائي النووي أميد شمشك من أن الفضاء والزمان مفهومان يشكلان توازناً متكاملًا في الكون لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فتقليص أحدهما يؤدي إلى تقليص الآخر وبنفس النسبة، فلو كان الكون عبارة عن مجرة درب التبانة فقط لتقلص بقاء الكون إلى شهرين فقط، وفي هذه الفترة القصيرة من الزمن لا يمكن وجود الإنسان وبقية الكائنات على الأرض بهذه الحال، فالكون ومن ضمنه مجموعتنا الشمسية وجدت بعناية خاصة لتهيئة كرتنا الأرضية، وجعلها صالحة لظهور مختلف أنواع الأحياء، وأخيراً لكي تكون صالحة لسكن الضيف العزيز المدعو بالإنسان^(١).



(١) أميد: شمشك، ١٩٨٦، ص ١١٠.



المحور الرابع:

الإنسان بين عون الملائكة وكيد الشيطان

لما خلق الله الإنسان أبقاه حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، ولا تعرف الكائنات له قدراً ولا شرفاً، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

قال القرطبي: «الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدرة، تقول: فلان مذكور أي له شرف وقدر، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَدَكُّ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليفة، ثم لما عرّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة وحمله الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال ظهر فضله على الكل، فصار مذكوراً»^(١)، ولما كانت الملائكة والجن من المخلوقات التي وجدت في السماوات والأرض على وضعها في سالف الزمان، وقت الرق والدخان، فإن الله لما خلق الإنسان ابتلى به جميع الكائنات، فكان موقف المخلوقات منه على نوعين:

الأول: نوع شارك الإنسان في قبول الأمانة أو رفضها، ابتلاهم الله جميعهم بها فرفضتها السماوات والأرض والجبال وقبلها الإنسان، ثم خيّر الله من رفضها في الإتيان طوعاً أو كرهاً لخدمة الإنسان، فقبلت عن

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١١٩/١٩).

حب وطاعة بلا عصيان، فسخرها الله بعدله وقدرته وهياها بأمره وحكمته استعداداً لرحلتها مع الإنسان وتمكينه من وضع معين يسمح بأداء الأمانة وتحقيق الامتحان، ثم رفعه الله وكرّمه واستخلفه واستأمنه فأصبح الإنسان شيئاً مذكوراً مميزاً عن غيره بعد أن كان مجهولاً، وبهذا جعل الله من رفض الأمانة مسخراً لمن قبلها تحقيقاً لعدله وحكمته.

الثاني: موقف بقية المخلوقات التي وجدت قبل الإنسان ونالت أعلى درجات القرب والإيمان ولم تشاركه مع المخلوقات في حمل الأمانة وهؤلاء هم الملائكة ومعهم الجنّي إبليس الذي يمثل جنسه من الجن^(١).

فإذا سأل سائل عن الحكمة أو العلة في قول الله ﷻ لملائكته ومعهم إبليس: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فالجواب والله أعلم أن الله ﷻ ابتلاهم جميعاً بالإنسان ليرى موقفهم ممن استخلفه دونهم، وبناء على رد فعلهم تجاه حكمة ربهم سوف يتحقق العدل والإنصاف كما تحقق للإنسان في قضية الاستخلاف.

● هل الملائكة في ردّها على ربّها كانت مستفسرة أم مستنكرة؟

كان رد فعل الملائكة أن قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقد

(١) إبليس على رأي جمهور المفسرين هو الجان أبو الجن، وقيل: من ذريته، قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقَ حَقَّقَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَارِ السَّعِيرِ﴾ [البقرة: ٢٧] الجان أبو الجن عند جمهور المفسرين، وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل: هو إبليس وسمي جانا لتواريه عن الأعين، يقال: جن الشيء إذا ستره، فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم، ومعنى من قبل، من قبل خلق آدم فتح القدير (٣/١٣٠)، وقال ابن جرير: «عنى بالجان هاهنا إبليس أبا الجن، يقول تعالى ذكره: وإبليس خلقناه من قبل الإنسان من السموم، كما حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة: والجان خلقناه من قبل، هو إبليس خلق قبل آدم» تفسير الطبري (١٤/٣٠)، وانظر في المسألة أيضاً: السيوطي: (٥/٧٨)، وأبو السعود: (٨/١٧٩)، وتفسير الثعالبي: (٤/٢٤٢).



كان الرد المتوقع من الملائكة ومعهم إبليس أن يكون بخلاف ما صدر منهم، كأن يقولوا مثلاً: أنت ربنا والكل عبيدك افعل بنا أو بغيرنا ما تشاء إنك أنت العليم الحكيم، أما قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فهو تعميم لم يستثنوا فيه الرسل والأنبياء، وإن استعملوا القياس بين من سبق من الجن وسائر الناس^(١)، فالإفساد وسفك الدماء وجب أن يحمل على الظن لا على القطع، وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) وقال أيضاً بعد أن أثبت لهم أن الإنسان بأوصافه مناسب لقضية استخلافه لا سيما لو علمه الأسماء: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٣) [البقرة: ٣٣]^(٢).

وقول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ سُجَّدٌ لِّمَحْمَدٍ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فيه ذكر لأنفسهم بالفضل والعبودية، وفيه تلميح بالرغبة في تولي الخلافة بدلاً من الإنسان وتقليل من شأنه بإمكانية العصيان، ومعلوم أن الراسخين من العابدين إذا بلغ خضوعهم متناه ك شأن النبي ﷺ عندما تورمت قدماء لا يذكرون عبادتهم لله بمجد وافتخار، بل على وجه الذل والافتقار والتقصير والانكسار، فمن حديث

(١) لم يرد دليل صريح يبين كيف علمت الملائكة أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ والأقرب من وجهة نظري إلى الصواب أن الملائكة علمت ذلك من معنى الاستخلاف، فالمستخلف في الشيء أمين عليه، فيمكن أن يؤديه إلى صاحبه، ويمكن أن يستحوذ عليه ويستأثر به لنفسه، ظلماً وكفراً بالحقوق، ولو أدى ذلك إلى القضاء على الآخرين، وخصوصاً إذا كانوا على ظلمه شاهدين، أو ذكروه أن يرجع إلى رب العالمين، فالملائكة علمت أن الإنسان يمكن أن يفعل ذلك لو استخلفه الله في الأرض، وهي عن نفسها ترى التعظيم المطلق لله، وهي أقدر على عدم العصيان، فكانها تقول لربها: إن أردت أن تستخلف فاستخلف من لا يعصيك، وهناك أقوال كثيرة للمفسرين، انظر تفصيلها في المراجع الآتية: ابن جرير: جامع البيان (٢٠١/١)، والشوكاني: فتح القدير (٦٣/١)، وابن الجوزي: زاد المسير (٥٩/١)، والواحدي: الوجيز (٩٨/١)، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٧٤/١)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٧١/١).

(٢) وانظر في معنى الآية: السيوطي (١١٣/١)، وابن كثير (٧١/١).

المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!»^(١).

فلم يكن ردهم على النحو المطلوب وليس هذا شأن المحب في سلوكه مع المحبوب، ف سبحانه وتعالى علام الغيوب ومقلب القلوب، يتدارك بفضل من شاء من خلقه، ويذل من شاء بعدله في ملكه، وحكمته في خلقه تفوق التصور والحدود، ولهذا ابتلاه الله جميعاً بالسجود فقال: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، أمرهم بذلك ليختبرهم، ويرى مدى صدقهم في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

لكن ما زال السؤال عالماً بالأذهان: هل الملائكة كانت مستنكرة أم مستفسرة؟ لا شك أن الملائكة الذين خاطبهم الله بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هم الذين خاطبهم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢٤)، لأن الله جمع الخطابين في موضع واحد فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ^(٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ^(٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ^(٣١) [الحجر: ٢٨ - ٣١]، فإبليس بلا شك كان بين القائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣٢) [البقرة: ٣٠].

ووجه الجمع بين هذه الأقوال، أن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، قول مشترك، لم يصدر من الملائكة الذين خلقوا من النور فقط، ولكن صدر أيضاً من إبليس الذي خلق من النار وله حكم الملائكة في الخطاب، فالاعتراض كان من إبليس لأن الله كشف عن سريره وظهر حقه على آدم وذريته، وقد بين الله غروره واستكباره وتشكيكه في

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن برقم ٤٥٥٦ (٤/ ١٨٣٠).



حكمة الله تعالى حيث رأى في نفسه أنه هو والملائكة أفضل لهذه المنزل
الرفيعة التي وصل إليها الإنسان.

أما الملائكة الذين خلقوا من نور فموقفهم كما ذكر ابن كثير: «إنما سؤالهم سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا! ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟»^(١)، لكنهم بقولهم هذا كانوا يرغبون أن يكون الخليفة في الأرض على صفة الطاعة المطلقة لا يعصي الله أبداً، ولما كانت هذه صفتهم فهم أولى بهذا الوصف من الإنسان، ولذا قالوا ما معناه: لو أردت أن تستخلف استخلف من لا يعصيك، يعنون أنفسهم، ومهما كان المعنى إلا أن الملائكة كانوا يرون الاقتصار عليهم في مسألة الاستخلاف الطاعة خشية أن يعصي الإنسان ربه ويسفك الدماء، والله عظيم أجل من أن يعصى، وكان إبليس يرى أنه مع الملائكة أولى بهذه المنزلة الرفيعة التي سيميز بها الإنسان عن حوله من الكائنات.

فكان جواب الله لهم: ﴿قَالَ إِنْ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، فالله حكيم في فعله، والإنسان الذي خلقه الله ليستخلفه في الأرض سوف يعطيه إمكانية العلم بجميع الأشياء التي يتمكن بها من التمييز بين ما ينفعه وما يضره، ويزداد بزيادة العلم خشية من ربه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ومن هنا علم آدم أسماء الأشياء من حوله، وعرفه كيف يزداد بمعرفة خصائصها قربة من ربه، فيزداد بذلك خشية الله وتعظيماً، ليثبت لهم في الحال حكمة التدبير، فقال جل ذكره: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، أي صادقين في أنه لا يعرف إلا القتل وسفك الدماء.

(١) ابن كثير: (١/٧٠).

قال ابن جرير الطبري في معنى الآية: «أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيتها الملائكة القائلون: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، إن كنتم صادقين في قيلكم أنني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته، وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطمعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم والتقدیس»^(١)، ثم يبين ابن جرير أن الله قال لهم: «فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليكم من خلقي، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم، وعلمه غيركم بتعليمي إياه، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعد وبما هو مستتر عن أعينكم من الأمور الموجودة أخرى أن تكونوا غير عالمين، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم فأني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي» **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**^(٢)، يعني بذلك: إني أعلم أن بعضكم فاتح المعاصي وخاتمها، وهو إبليس، منكراً بذلك تعالى ذكره قولهم، ثم عرّفهم موضع هفوتهم في قيلهم ما قالوا من ذلك، بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عياناً، فكيف بما لم يروه ولم يخبروا عنه بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ، وقيله لهم: **﴿أُنَبِّئُوكَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**^(٣) [البقرة: ٣١] أنكم إن استخلفتكم في أرضي سبحتموني وقدستموني، وإن استخلفت فيها غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم وبدت لهم هفوة زلتهم أنابوا إلى الله بالتوبة، فقالوا: **﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾** [البقرة: ٣٢]^(٤).

● لماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

السجود لغير الله شرك أكبر وظلم عظيم، يقول تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** [لقمان: ١٣]، أما إن كان السجود لغير الله بأمر الله فهو من أعظم علامات المحبين

(١) ابن جرير، جامع البيان (١/٢١٨).

(٢) السابق (١/٢١٨، ٢١٩).



الصادقين، بل هو برهان الموحدين، لأن أحكام المحبة تقضي بتنفيذ أمر المحبوب دون استفسار أو سؤال، والتنفيذ يعطي العبودية معنى الكمال لما فيه من إذلال النفس لأمر معبودها وخالقها، ولذلك كانت الأحكام التعبدية من علامات الصدق في أداء العبودية، فتقبيل الحجارة والأعتاب والتمسح بالأضرحة والقباب شرك أكبر لا يغفر عند الحساب إلا بالتوبة الصادقة، لكن تقبيل الحجر بأمر الله أو الطواف سبعاً ببيت الله أو صلاة الظهر والعصر أربعاً بالتحديد على سنة رسول الله ﷺ من علامات الموحدين الصادقين في دعوى العبودية وإن كانوا يجهلون العلة في ذلك، كما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْبَلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ^(١).

ومن ثم فإن أمر الله للملائكة وإبليس على وجه الخصوص بالسجود لآدم عليه السلام، له أسباب عديدة أظهرت الحكمة الإلهية في فعل الله سبحانه وتعالى، وقد تجلّى أبرزها فيما يلي:

أولاً: أن يعلم الإنسان مكانته عند الله وعظم المهمة التي كلفه بها، والتي من أجلها أسجد له ملائكته، فيدفعه ذلك إلى الطاعة والإيمان، ليتساءل العقلاء ويفكروا بامعان، أبعد هذا الفضل والتكريم يتجرأ الإنسان على الكفر والعصيان؟ فبعد هذه المنزلة التي وصفه الله بها لو كفر الإنسان بربه واتبع سبيل الشيطان استحق أشد العذاب بعدل الله.

ثانياً: أن أمر الله بالسجود لآدم ابتلاء للملائكة واختبار لهم في إظهار صدقهم لما قالوا لربهم في وصف أنفسهم: ﴿وَحَنُّ سُبْحِ مُحَمَّدٍ وَتَقْدِيسُ لَكَ﴾ فكانت حقيقة الابتلاء في قول الله لهم: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وهو أمر تكليفي وحكم تعبدية حتى ولو كان الأمر بالسجود للإنسان، فمن سجد

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج برقم ١٥٢٠ (٢/٥٧٩).

منهم فقد صدق في قوله، ومن امتنع كان ادعاؤه للتسبيح والتقديس كذباً وزوراً وعلواً واستكباراً وانطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

ثالثاً: أن سجود الملائكة لآدم إقرار منهم بمنزلة الإنسان وتعظيم للدور الذي سيقوم به في دار الامتحان، وأنه خليفة الله في أرضه على وجه الابتلاء وأنه الوحيد الذي ميّزه الله عن الكائنات من حوله فهو القائم عليها بأمر الله وشرعه وهو المستفيد منها إلى قيام الساعة، فمن سجد لآدم أقرّ بذلك، ومن امتنع منهم كان معترضاً على فعل الله ومشككاً في حكمته.

رابعاً: أن أمر الله لملائكته بالسجود لآدم لا يدل فقط على مطالبتهم بالإقرار والتعظيم للإنسان الذي كرمه الله، ولكن سجودهم سيتبعه تكليف جديد يقومون من خلاله جميعاً بالقيام على تدبير الكون من أجل الإنسان وضبط أموره اللازمة لتحقيق استخلافه في الأرض، والقيام أيضاً على أمور الكائنات من حوله لكي تظل مسخرة للإنسان إلى يوم القيامة، وأنهم إذا سجدوا لن يعصوا الله أمراً في تدبير الكون وشؤونه، وهم في ذلك خاضعون غير مستكبرين، فأبدوا بذلك الاستعداد التام لأمر الله في تدبير شؤون الحياة، والله ﷻ له مطلق التدبير في ملكه، وقادر على ألا يجعل الملائكة أسباباً لتدبير خلقه، وأن يتركهم على وضعهم الأول قبل نزول الإنسان على أرضه، فمشيئة الله في خلقه مشيئة مطلقة يقول للشيء كن فيكون، وهو قادر على أن يسيّر الأشياء بالأسباب المعهودة المشهودة في ترابط العلل والمعلولات أو بدون أسباب كخوارق العادات، لكنه جعل الملائكة أسباباً غيبية لتدبير معيشة الإنسان كالأسباب المشهودة التي تراها العينان، وكلاهما عند الله في الابتلاء سيان، وتلك حكمة الله في أن يبتلي الملائكة بالإنسان ويبتليه بهم في ثاني ركن من أركان الإيمان، فانظر كيف أرسل الله جبريل بين الصحابة يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وانظر كيف قال للرسول ﷺ: فأخبرني عن الإيمان؟ فقال رسول الله: «الإيمان أن تؤمن بالله



وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ: صَدَقَتْ^(١).

فلما سجدوا لآدم وأقروا بمكانة الإنسان قسمهم الله ونوعهم وكلفهم ووظفهم كل في وظيفة بالغة التخصص، فهم بأمر الله قائمون على شؤون الإنسان يدبرون أمره على نحو ما جاء في القرآن: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وكما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]^(٢).

والله ﷻ قد جعل من الملائكة فريقاً يبلغ كلام الله إلى الأنبياء والمرسلين وجعل على رأسهم الروح الأمين، وبهذا الوحي يذكر الله الإنسان بفطرته ويشرع لكل مستخلف منهجه في رعيته، وجعل منهم فريقاً للعد والإحصاء سماهم كراماً كاتبين، وجعلهم على عمل الإنسان قائمين يسجلون ويدونون ويمحصون ويدققون لا يغادرون صغيرة وكبيرة من سعيه وكسبه، فالإنسان يحاسب على ما استرعاه من الأمانة، ويشعر المؤمن يوم القيامة بالعزة والكرامة، ويتقلب الكافر في الحسرة والندامة، حتى إذا جاء الكافر يوم القيامة تعجب من دقة حسابهم ومدى قدرتهم على تسجيل الأعمال كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنْزِلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وجعل الله ﷻ منهم فريقاً يقوم بقبض الأرواح واستدعاء الإنسان من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وجعل على رأسهم ملك الموت، وجعل

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٨ (٣٦/١).

(٢) وانظر أيضاً: حكيم، الشيخ حافظ بن أحمد، معارج القبول (٢/٦٣: ٥٣)، وقارن بين ما ذكره ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية ص ٣٣٥، وما أورده ابن القيم في كتبه: إغاثة اللهفان (٢/١٢٥ - ١٣٢)، والتبيان في أقسام القرآن (١/٨٣)، والجواب الكافي (١/١٤٢)، ومفتاح دار السعادة (٢/١٨٦ - ١٩٣).

منهم خزنة الجنان، قائمين على أمور المؤمنين من بني الإنسان، وجعل منهم أيضاً الموكلين بالنيران، ملائكة غلاظ شداد على رأسهم خازنها مالك: ﴿وَأَدَاؤُا بِمَكَائِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُكُ قَالَ إِنَّا كُمْ مَلَكُوتُ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ۝٧٨﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةُ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝١﴾ [التحریم: ٦].

وقد جعل الله منهم أيضاً أهل الإغاثة والنصر للقتال مع المؤمنين، وجعل منهم الموكل بالمطر والموكل بالجبال، والموكل بحضور مجالس الذكر، والموكل بالنطفة في الرحم، حتى حملة العرش ومن يطوفون حوله لهم صلة وثيقة بالمؤمنين، فهم بالإضافة إلى تسبيحهم وعبادتهم لله يدعون للتائبين حتى بلغ الأمر أن الله كلّف ملكين كل يوم ينزلان من السماء، أحدهما يدعو لكل منفق، والآخر يدعو على كل ممسك، فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُضْبَحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا»^(١).

وتفاصيل ما ذكر عن الملائكة في القرآن والسنة يضيق المقام عن ذكره، لكن هذه الملائكة جميعها سجدت لآدم عليه السلام، وكلهم قائمون على أمور الإنسان يدبرون العالم من أجله تنفيذاً لأمر الله، يقومون بواجبهم مقرّين بخالقهم مسلمين لحكمته سبحانه وتعالى فيما يدبرون: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝١﴾ [التحریم: ٦].

ونظراً لعظمة دورهم، وعدل الله في ابتلائهم، أقسم الله بهم، فقال في بيان وصفهم: ﴿وَاللَّزَغَتِ غَوْا ۝١ وَاللَّشَطَتِ شَطَا ۝٢ وَالسَّيْحَتِ سَبَا ۝٣ فَالْمَدْرَتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [النازعات: ١ - ٥].

(١) أخرجه البخاري في الزكاة برقم ١٤٤٢.



وهكذا ظهرت حكمة الله في الأشياء من خلال معاني الابتلاء، فكل هذه الملائكة تقوم على تدبير شؤون الإنسان بعدل منه سبحانه عندما ابتلاهم بالسجود لآدم عليه السلام، كذلك استخلف الإنسان في الأرض وكرّمه، وسخر له من حوله بحكمته سبحانه وتعالى عندما ابتلاهم بعرض الأمانة فرفضتها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان، والله يذكرنا بالملائكة أنه لو شاء استخلفهم في الأرض بدلاً منا لو أننا عصيناه، كما جاء ذلك في كتاب الله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠].

يقول ابن جرير الطبري في معنى الآية: (ولو نشاء معشر بني آدم أهلكناكم فأفئنا جميعكم، وجعلنا بدلاً منكم في الأرض ملائكة، يخلفونكم فيها يعبدونني)^(١).

● ابتلاء الإنسان بالشیطان:

لما كان أمر الله للملائكة بالسجود لآدم لا يدل فقط على مطالبتهم بالإقرار لخلافة الإنسان في الأرض، بل سوف ينفذون أمر الله إذا كلفهم بتدبير شؤون الإنسان أو العالم من حوله، فإن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين، وأن يدخل في جملة المقربين بهذه المنزلة العظمى التي كرم الله بها الإنسان، فتملكه العلو والاستكبار وأظهر الاعتراض والاستنكار حسداً وحقداً على آدم وذريته، كيف فضلهم الله بمنزلة أعلى من مكانته!

فلما لعنه الله وطرده من رحمته، وأيقن إبليس بهلاكه وشقوته وأنه لا محالة ممنوع من جنته، أراد أن يحقر من شأن الإنسان وأن يشكك في حكمة الرحمن، وكأنه يقول لربه: إن الذي استخلفته في الأرض ووضعت في هذه المنزلة أقل وأحق من ذلك، وكنت أنا والملائكة أولى بذلك، فدعني أحيا إلى يوم القيامة أوسوس له فقط بالظلم والطغيان، ومكني من دعوته إلى الكفر والفسوق والعصيان، وسوف ترى صدق كلامي وحقارة

(١) الطبري: جامع البيان (٩٨/٢٥).

الإنسان، فقال سبحانه وتعالى يصف ما ذكره الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنَنَنَّ دُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، فكان من عدل الله أنه أمهله، وجعله ابتلاء للخليفة الذي فضله، لأنه لو منع إبليس من هذه المسألة لصحت دعواه بوجه مقبول، ولكان للشيطان على سائر العقول حجة وسلطان، وقد أقام الله السماوات والأرض على الحق والميزان: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٢١]، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

فظهر من أجل ذلك كمال عدل الله عندما أذن للشيطان بالبقاء في الحياة يوسوس للإنسان بالعصيان من غير إلزام ولا سلطان، وتوعد الله أتباعه بالعذاب والخسران، فقال سبحانه وتعالى مبتلياً للشيطان بالإنسان: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [٢٧] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]، فازداد الشيطان حقداً على حقه السابق، وأكد أنه لن يسأم من إغوائه ودعوته إلى الشرك بالخالق: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣٩] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [٤٠] قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [٤١] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [٤٢] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٤٣] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٤].

فلما نزل الخبيث إبليس وضع لنفسه عرشاً على الماء، يشبه استواءه باستواء الله على عرشه في السماء، وجعل نفسه إلهاً لأتباعه من العصاة، وحبب إلى نفسه من جنسه أسوأ الدعاة، وجلس على عرشه ليعبث في الأرض سراياه، كما ورد عن جابر بن عبد الله أنه سَمِعَ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «يَبْعَثُ الشَّيْطَانُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً»^(١)،

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة برقم ٢٨١٣ (٤/٢١٦٧).



وفي رواية أخرى قال ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ أَغْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئاً، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُه حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاتِهِ، قَالَ: فَيُذْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعَمَ أَنْتَ»^(١).

● العلة في وجود قرنين يهتمان بلمتين:

لما لعن الله إبليس وطرده من رحمته وأيقن الملعون بهلاكه وشقوته وأنه لا محالة ممنوع من جنته، أراد أن يحقر من شأن الإنسان حقداً وانتقاماً وأن يشكك في حكمة الرحمن عناداً وإلزاماً، وادّعى أن الله استخلف الإنسان وهو لا يستحق هذه المنزلة، وأنه والملائكة أنسب منه لهذه المسألة، فطلب الحياة والبقاء إلى يوم القيامة يوسوس للإنسان بالظلم والطغيان ويدعوه إلى الكفر والفسوق والعصيان ليثبت صدق كلامه وحقارة الإنسان، فكان من عدل الله كما تقدم أنه أمهله.

وقد كان من عدل الله وحكمة التدبير أنه لما أوجد في كل إنسان منا نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين وباعثين على أحد النجدين ليس لأحدهما غلبة على الآخر، نازع يدعو إلى الطاعة وفعل الخير وآخر يدعو إلى المعصية وفعل الشر، والإنسان حرٌّ بينهما في الاختيار كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال: ﴿وَنَقَّيْرَ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [فَالْهَمَّا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ١٠] [الشمس: ٧ - ١٠]^(٢)، فإذا سمح الله للشيطان أيضاً أن يوسوس للإنسان بالعصيان واتفق الشيطان مع نازع الشر في الإنسان، كلاهما يدعوان إلى الكفر والعصيان ألا تكون دواعي الشر في الإنسان أقوى من دواعي الخير فيه؟ أليس للعاصي أن يحتج على الله يوم القيامة بأن نازع الخير فيه كان

(١) الموضوع السابق حديث رقم برقم ٢٨١٤.

(٢) انظر في معنى الآية: أبو السعود (١٦٤/٩)، وما رواه الحاكم برقم ٣٩٣٤.

وحيداً، وأن غلبة دواعي الشر كانت ظلماً شديداً، فاختلف بذلك الميزان وأصبح لها ركنان أحدهما نازع الشر والآخر الشيطان، فهي بذلك أقوى في الإنسان من دواعي الخير والإيمان، من أجل ذلك يطالب ربه بإسقاط العذاب عنه. ومن هنا ظهرت في الإنسان حكمة الله وبلغ كمال العدل في الأشياء منتهاه، فجعل الله بنية الإنسان على مستوى الكمال وجعله ظاهراً وباطناً على قمة الاعتدال، فقال رب العزة والجلال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الْإِنِّى خَلَقْتُكَ فَسَوِّدْكَ فَعَدَلْتُكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝﴾ [الانفطار: ٦-٨]، فكلف الله بكل إنسان ملكاً قريناً، وأمره أن يلزم الإنسان كملازمة الشيطان لا يفارقه إلا إذا فارق دار الامتحان، وأمره أيضاً أن يدعو إلى الخير ويحضه عليه كما أن الشيطان يدعو إلى الشر ويحضه عليه، فيستوي بذلك مقدار الدواعي في الإنسان، ولا يكون لأحد من أهل العصيان حجة على الله يوم القيامة، فالله ﷻ كما هداه النجدين وركب فيه نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين ليس لأحدهما غلبة على الآخر، وكل إنسان أيضاً قرينين هاتفين مرغبين بلمتين ليس لأحدهما سلطان على إرادة الإنسان، فبات مقدراً لكل منا بحكمة الله وعدل الميزان قرينان داعيان هاتفان مرغبان إما في الخير وإما في الشر، ولم يستثن الله أحداً من ذلك حتى سيد ولد آدم ﷺ، فمن حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ»، قالوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِحَقٍّ»^(١).

وليس كل ما جعله الله للإنسان من عوامل الأمان ليحمله من كيد الشيطان أنه كلف ملكاً قريناً يهتف له بالإيمان في مقابل هتافه بالعصيان،

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة برقم ٢٨١٤، وانظر أيضاً ما رواه الترمذي عن عبدالله في تفسير القرآن برقم ٢٩٨٨ وحديث عائشة عند مسلم في صفة القيامة برقم ٢٨١٥، وما ذكر الله في شأن القرينين في سورة «ق»: ٢٣ - ٢٦، وتفسير ذلك عند ابن جرير (١٦٤/٢٦)، وابن الجوزي (١٥/٨)، والقرطبي (١٧/١٧).



ولكن الله حفظ الإنسان وأمنه من كيد الشيطان بأمور أخرى جاء نصها في القرآن والسنة:

الأمر الأول: أن الله فتح باب التوبة للإنسان مهما بلغ به كيد الشيطان ما لم تغرغر النفس أو تطلع الشمس من مغربها، فمن حديث أبي موسى مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَنْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١)، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»^(٢)، حتى لو اتبع الإنسان الشيطان وتمادى في الجرم والعصيان فقتل مائة نفس وأراد التوبة والغفران تاب الله عليه وقبل منه الطاعة والإيمان.

الأمر الثاني: أن الله كما وعد بقبول التوبة عند رجوع الإنسان عن العصيان، فإنه أيضاً سيبدل للتائبين عدد ما فات من السيئات بنفس أعدادها حسنات، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠].

الأمر الثالث: أنه سيعامل المؤمنين بفضله والكافرين بعدله، والعدل أن يستوي العمل مع الجزاء، والفضل أن يفوق الجزاء العمل، فعن ابن عباس مرفوعاً عن رب العزة: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(٣).

(١) مسلم في التوبة برقم ٢٧٥٩، وانظر ما كتبه النووي في شروط التوبة (٢٥/١٧).

(٢) الترمذي في الدعوات برقم ٣٥٣٧، وابن ماجه في التوبة برقم ٤٢٥٣، والحاكم برقم ٧٦٥٩ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق برقم ٦١٢٦.

الأمر الرابع: أن الله سيفرح بتوبة عبده فرحاً شديداً ترغيباً للإنسان وتبكيماً للشيطان، فإن المذنب مخطئ في جنب الله، وعظم الذنب يقاس بعظم من أخطأت في حقه، فلو قبل الله توبة المذنب فإن مجرد القبول فقط كرم بالغ من الله عليه، فما بالناس وهو يقبل توبة المذنب بعفو جديد وفرح شديد، فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا»^(١)، وفي مقابل توبة الإنسان وسجوده لرب العالمين يبكي الشيطان بكاء النادمين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَةَ فَسَجَدَ اغْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَنْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - وَفِي رَوَايَةٍ أَبِي كُرَيْبٍ: يَا وَيْلِي -، أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأَمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»^(٢).

الأمر الخامس: أن الله تكفل بإيقاف الشيطان وإخناسه عند استعادة الإنسان من وسواسه فقال سبحانه وتعالى: «وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(٣) [فصلت: ٣٦]، وكان يمكن أن يقال: إذا نزعك الشيطان فقاومه بما استطعت من أسلحتك الفكرية ودلالاتك العقلية لكن فضل الله على الإنسان كان عظيماً.

الأمر السادس: أن الله وعد الإنسان ألا يعذبه إلا إذا بعث له رسولاً يذكره بالشيطان وعداوته للإنسان فقال: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»^(٤) [الإسراء: ١٥]، ولو فرض أن إنساناً انقطعت به أسباب العلم بعداوة الشيطان وحقيقته ولم يعلم منهج الله في أرضه وأمانته ولم يسمع عن الإسلام ورسالته فإنه معذور عند الله بجهالته لاجتماع الأدلة على ذلك.

وكل هذا الفضل الذي منحه الله للإنسان ليحميه من كيد الشيطان يضاف إلى الملك القرين الذي يهتف في الجنان ويدعو بإذن الله إلى الخير والإيمان، فأَيُّ كمال أفضل من هذا البيان الذي جاء في القرآن!!

(١) أخرجه مسلم التوبة برقم ٢٦٧٥.

(٢) أخرجه مسلم الإيمان برقم ٨١.



خاتمة البحث

من خلال ما سبق من المحاور في الحديث عن بداية الكون ودراساتها دراسة تأصيلية للنصوص القرآنية والنبوية يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

١ - أن نظرية الحقل المتدرج وكذلك نظرية الانفجار العظيم إنما هي تعبير علمي قاصر عن المرحلة الأولى من بداية الكون وهي مرحلة الرتق والدخان، وكذلك المرحلة الثانية وهي مرحلة الفتق وتهيئة الكون للإنسان.

٢ - أن الإنسان لم يتميز عن غيره بالنطق أو العقل أو الاجتماعية والحرية، وإنما تميز باستخلافه في الأرض، فهو خليفة عن الله على وجه الابتلاء والكمال.

٣ - أن الله استخلف الإنسان في الأرض لأنه الوحيد الذي قبل الأمانة حين رفضتها الكائنات، وأنه سبحانه سخر من رفضها لمن قبلها واستخلفه فيها، وذلك بعد تخييرها في التسخير والإتيان طوعاً أو كرهاً تحقيقاً للعدل في الكون والرضا بحكمة الله في التدبير.

٤ - أن استخلاف الإنسان في الأرض يشمل معنيين أساسيين: الأول أنه خليفة عن سبق من الذرية عن نقص في الأوصاف البشرية، يخلف بعضهم بعضاً في تعاقب الأجيال، والثاني أنه خليفة لله في الأرض على وجه الابتلاء والكمال.

٥ - أن الاستخلاف نتج عنه وجود عالمين على سبيل ابتلاء الإنسان، عالم الغيب وعالم الشهادة، وهما في العلم عند الله سيان، لكنهما مختلفان بالنسبة للإنسان.

- ٦ - أن الاستخلاف ظهر على إثره نوعان من توحيد الله: توحيد في العبودية، وتوحيد في الربوبية، فتوحيد العبودية أن يكون المستخلف مقيداً بالخضوع للتكليف وإظهار العبودية، والعمل في أرض الله بالإرادة الشرعية، وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله في معنى من معاني الربوبية، أو تخويلاً لغيره في إرادته الكونية.
- ٧ - أن الكون مرّ في نشأته بمرحلتين، المرحلة الأولى بقيت مدة من الزمان تتضاءل بجوارها حسابات الإنسان، فربما تكون اللحظات فيها توازي في حساباتنا ملايين السنوات، وهذا لا يجعلنا في غرابة من طول الزمان الذي يذكره العلماء الآن في تقدير عمر الكون بعشرة آلاف مليون سنة تزيد إلى عشرين ألف مليون طالما أنهم يقدّرون ذلك بحسابنا المعهود.
- ٨ - أن المرحلة الثانية من نشأة الكون خلق الله فيها الإنسان وابتلاه بمن حوله من المخلوقات، فكان ابتلاؤه بالكائنات على نوعين: نوع شارك معه في قضية الأمانة وهي السماوات والأرض والجبال، وقد كانت النتيجة أن الله سخر من رفضها لمن قبلها واستخلفه عليها، والنوع الثاني من سبقه في الوجود ولم تعرض عليه الأمانة وهم الملائكة والجان، ابتلاه بهم من خلال امتحانهم في موقفهم من خلافته.
- ٩ - أن الكون بعد تمام المرحلة الأولى وتهيئته للإنسان استمر على هذه الحال فترة طويلة قد تساوي ملايين السنين، ولكن نقول الله أعلم بمقدارها، فقد كان آدم خلالها في جنة الابتلاء مع أمنا حواء، وهذه الفترة قد تفسر تنوع الحقب الزمنية التي مرت بها الأرض كحقب الحياة العتيقة والمتوسطة والحديثة وحقب الحياة الأخيرة التي نشأت فيها بعض المخلوقات كالديناصورات وكثير من الحيوانات.
- ١٠ - أن تكليف الملائكة بتدبير شؤون الإنسان إنما هو ابتلاء وامتحان وافقت عليه الملائكة بعد سجودها لآدم وامتناع الشيطان، وتلك حكمة الله في ابتلاء الملائكة بالإنسان وابتلائه بهم في ثاني ركن من أركان الإيمان.



١١ - أن الشيطان حقد على الإنسان لأنه كان يرغب أن يكون خليفة في الأرض بدلاً منه، فلا هو رضي بما ناله في وضعه الأول من دوام القرب ولا نال ما تمنّاه من استخلافه في الأرض، وهذا هو شأن الحاقدين الحاسدين، ومن ثم أبى أن يكون مع الساجدين وأن يدخل في جملة المقرّين بهذه المنزلة العظمى التي كرم الله بها الإنسان.

١٢ - أن الشيطان لما طلب الوسواس للإنسان ودعوته إلى الكفر والفسوق والعصيان، كان من عدل الله وفضله على الإنسان أنه جعل له أنواعاً من عوامل الأمان يتحصن بها من كيد الشيطان.



قائمة أبرز المراجع

- ابن تيمية: أبو العباس الحراني أحمد بن عبدالحليم:
- درء تعارض العقل والنقل، ١٣٩١هـ، تحقيق: د. محمد رشاد سالم - الرياض، دار الكنوز الأدبية.
- دقائق التفسير، ١٤٠٤هـ، تحقيق: د. محمد السيد الجليلند - دمشق، مؤسسة علوم القرآن.
- الرد على المنطقيين - بيروت، دار المعرفة.
- رسالة في الحقيقة والمجاز، ضمن مجموع الفتاوى.
- رسالة في العقل والروح، ضمن مجموع الفتاوى.
- قنوت الأشياء كلها لله تعالى، ضمن جامع الرسائل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.
- منهاج السنة النبوية، ١٤٠٦هـ، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.
- ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي بن محمد ١٤٠٤هـ، زاد المسير في علم التفسير - بيروت، المكتب الإسلامي.
- ابن حزم: الأندلسي، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي - بيروت، دار الآفاق الجديدة.
- ابن حيدرة: أبو الحسن شيث بن إبراهيم، ١٤٠٥هـ، حز الغلاصم في إفحام المخاصم، تحقيق: عبدالله عمر البارودي - بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية.
- ابن قيم الجوزية: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر:
- اجتماع الجيوش الإسلامية، ١٤٠٤هـ - بيروت، دار الكتب العلمية.
- الجواب الكافي - بيروت، دار الكتب العلمية.
- شفاء العليل، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨، بيروت، دار الفكر.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله - الرياض، دار العاصمة.



- مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي - بيروت، دار الكتاب العربي.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة - بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل الدمشقي ١٤٠١هـ، تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الفكر.
- ابن المطرز: أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي ١٩٧٩م، المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار - حلب، مكتبة أسامة ابن زيد.
- ابن منظور: محمد بن مكرم الأفيقي المصري، لسان العرب، بيروت، دار صادر.
- أبو السعود: محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الأصفهاني: أبو القاسم، الحسين بن محمد الراغب، ١٣٢٤هـ، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني - القاهرة، مصطفى البابي الحلبي.
- الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، جواهر الحسان، بيروت، مؤسسة العالمي للمطبوعات.
- الجرجاني: علي بن محمد بن علي، ١٤٠٥هـ، التعريفات، بيروت، دار الكتاب العربي.
- الخراز: أبو سعيد أحمد بن عيسى، ١٩٧٥م، كتاب الصدق، تحقيق: د. عبد الحليم محمود - القاهرة، دار الكتب الحديثة.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ١٤١٤هـ، الدر المنثور، بيروت، دار الفكر.
- الشاطبي: إبراهيم بن موسى المالكي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت، دار المعرفة.
- الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس، ١٣٩٣هـ، الأم، بيروت، دار المعرفة.
- شاهين: دكتور عبد الصبور، أبي آدم، نشر دار الاعتصام - القاهرة، سنة ١٩٩٨م.
- شخاشيرو: دكتور موفق، الكيمياء العامة واللاعضوية.
- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، فتح القدير، بيروت، دار الفكر.

- الشيباني: أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، ١٤٠٨هـ، الزهد، تحقيق: عبدالعلي حامد - القاهرة، دار الريان.
- الصنعاني: عبدالرزاق، ١٤١٠هـ، تفسير القرآن، تحقيق: د. مصطفى مسلم - الرياض، مكتبة الرشد.
- الطبري: ابن جرير ١٤٠٥هـ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت، دار الفكر.
- الفراهيدي: أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، دار ومكتبة الهلال.
- القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد ١٣٧٢هـ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبدالعليم - القاهرة، دار الشعب.
- الماتريدي: أبو منصور، كتاب التوحيد، تحقيق: د. فتح الله خلف - الإسكندرية، دار الجامعات المصرية.
- المحاسبي: الحارث بن أسد، ماهية العقل، تحقيق: حسين القوتلي، بيروت، دار الفكر.
- المروزي: أبو عبدالله محمد بن نصر بن الحجاج، ١٤٠٦هـ، تعظيم قدر الصلاة، تحقيق: د. عبدالرحمن عبدالجبار، المدينة المنورة، مكتبة الدار.
- المزي: أبو الحجاج، ١٤٠٠هـ، تهذيب الكمال، تحقيق: د. بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- المناوي: محمد عبدالرؤف، ١٤١٠هـ، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. محمد الراية، بيروت، دار الفكر.
- النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف، ١٣٩٢هـ، صحيح مسلم بشرح النووي، بيروت، دار إحياء التراث.
- الهمداني: أبو شجاع شيرويه بن شهر دار الديلمي، ١٩٨٦م، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الهيثمي: علي بن أبي بكر، ١٤٠٧هـ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - القاهرة، دار الريان للتراث.
- الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد ١٤١٥هـ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داودي - دمشق، والدار الشامية.